د. محمد مورو

الإسلام وأمريكا
حوار أم مواجهة ؟

تحليل لكتاب «الفرصة السانحة» لريتشارد نيكسون





الدبس للنشر

الإسلام وأمريكا

حوار أم مواجهة ؟


الدبس للنشر


الروضة
لكتب سامي صالح الطرابيشي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

جاء كتاب الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون، وهو الكتاب الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ أحمد صدقى مراد، وأصدرته دار الهلال المصرية، جاء هذا الكتاب ليحمل الكثير من الملامح العامة والخاصة لعالم ما بعد انهيار الشيوعية من منظور أمريكى، أو كما يحلم ويريد الأمريكان لأنفسهم ولغيرهم، والكتاب بالطبع وفى المقام الأول موجه للأمريكان على لسان نيكسون حتى ينتهز الأمريكان هذه الفرصة التى انفردوا فيها بالقوة فى العالم، فيعملون على تكريس هذا الواقع وتطويره فى اتجاه المزيد من الهيمنة والسيطرة الأمريكية على العالم ليصبح القرن الواحد والعشرين قرناً أمريكياً، ولذا فإن نيكسون اختار للكتاب عنواناً هو:"Seize the Moment" وترجمتها انتهزوا هذه الفرصة، أو الفرصة السانحـة.

وترجمة الكتاب إلى العربية يحمل فى طياته جانبين اثنين أحدهما نافع والآخر ضار، فأما الجانب النافع فهو أنه أتاح للقارىء العربى والمسلم فرصة لمعرفة الطريقة التى يفكر بها الأمريكيون حالياً تجاه العالم، وماذا يريدون أن يفعلوا بهذا العالم عموماً والعالم الإسلامى خصوصاً، وكذلك الآليات التى سوف يتبعونها فى هذا الصدد، وبديهى أننا نرفض هذه الهيمنة الأمريكية لأننا نعرف أكثر من غيرنا أن الحضارة الغربية عموماً ومرحلتها الأخيرة «الأمريكية» خصوصاً لم ولن تحمل لنا إلا الشر الذى عانينا منه، لم ولن تحمل لنا إلا القهر والنهب والاستبداد، وبالتالى فإن معرفة طريقة تفكير الأمريكيين الآن ضرورية من أجل هذه المواجهة التى تلوح فى الأفق وتبدو حتمية، بل إنها بدأت بالفعل، والأثر الإسلامى يقول من عرف لغة

قوم أمن شرهم، وطبيعي أن كلمة لغة عنا تتضمن طريقة تفكيرهم وخططهم، وبالتالى فإن الترجمة العربية لهذا الكتاب أمر نافع ومحمود ومشكور لأنها تطلعنا على طريقة تفكير الأمريكيين الذين سوف نواجههم فى أكثر من معركة وأكثر من مجال منذ الآن وإلى أمد لا يبدو قصيراً.

على أن للترجمة العربية لهذا الكتاب جانبا آخر ضارا وهو أنه دفاع حميم عن النمط الحضارى الغربى عموماً والأمريكى خصوصاً وتبشير بالقيم الأمريكية المزعومة عن الحرية، وترويج لها مما يعطى الإنطباع بأنه يراد لهذه القيم أن تتسلل إلى وجدان وقناعة القارىء العربى فيتحمس بدوره لها فيكون أمريكياً أكثر من الأمريكان أو فى أقل الأحوال لا يكون معارضاً للمحاولات المستمرة لإخضاعنا لأمريكا، لأنه هنا لن يشعر بأن فى الأمر هيمنة ولا غزواً ثقافياً ولا طريقة للإستلاب بقدر ما هو إيمان بقيم محايدة عن الحرية والسلام والرخاء التى تزعم أمريكا أنها سوف تقدمها للبشرية!

على أنه ورغم هذا التحفظ فإن الترجمة العربية لهذا الكتاب تظل مفيدة أكثر مما هى ضارة، خاصة أن من المفروض أننا نثق فى أنفسنا وفى قيمنا ونعرف من خلال الممارسة مع الغرب كم هذا الغرب منافق وكذاب وأنه يدس لنا السم فى العسل، ويبقى أن ضرورة الإطلاع على طريقة تفكير الغرب عموماً والأمريكيين خصوصاً من خلال ما يكتبه قادتهم ومفكروهم أمر طبيعى لكل أمة تريد أن تعرف عدوها حتى تستطيع مواجهته، ولعل ما يؤكد هذا أن الإستطلاع فى الجيوش مثلاً هو من أهم الأسلحة التى تحقق النصر.

* * *

منذ أن انهارت الشيوعية والحديث لا ينقطع فى الغرب عن أن الإسلام

هو امبراطورية الشر الجديدة التى ينبغى للغرب القضاء عليها، والتى حلت محل امبراطورية الشر القديمة «الاتحاد السوفييتى والكتلة الشيوعية» بل ووصل الأمر إلى حد أن زعماء حلف الأطلنطى أعلنوا فى صراحة ضرورة الإبقاء على هذا الحلف لأن هناك هدفاً ما زال باقياً تجاه هذا الحلف وهو الإسلام والمسلمين الذين هم بالضرورة شريرون وإرهابيون وغير متحضرين. والتصريحات فى هذا الصدد متواترة بدءاً من المرأة الحديدية مارجريت تاتشر وانتهاءً بجورج بوش ومروراً بالفرنسيين والألمان.

وفى الحقيقة فإن العداء للإسلام ليس وليد هذه اللحظة، بل هو كامن فى الوجدان الأوروبى والأمريكى منذ زمن بعيد، وصحيح أن التناقض مع الكتلة الشيوعية قد أخفى هذا العداء لفترة من الوقت، إلا أن انتهاء وانهيار التحدى الشيوعى للغرب الرأسمالى جعل هذا العداء يقفز إلى السطح وبصورة استفزازية تحمل فى طياتها أجواء الحروب الصليبية، وعلينا بالتالى أن نتوقع معركة شرسة ومريرة مع الغرب الذى لن يتورع عن استخدام القوة العسكرية أو السياسية أو الهيئات الدولية أو استخدام المفكرين والكتاب ودوائر الإعلام المحلية العميلة فى زرع ثقافته ونمط تفكيره والقضاء على تميزنا الحضارى وقيمنا الأصيلة، وبكلمة واحدة فإن أمامنا معركة حضارية كبرى فإما أن تندثر حضارتنا أمامهم لا قدر الله وإما أن نخرج من المعركة منتصرين فتسود حضارتنا وبالتالى يستريح العالم وتستريح أمتنا، لأن الحضارة الغربية الأمريكية حضارة شريرة وستؤدى إلى كارثة عالمية وبيئية وإنسانية لا حد لها.

* * *

على أى حال، فإن كتاب نيكسون يحمل الكثير من المغالطات ويحمل الكثير من التبشير بالقيم الحضارية الغربية، فنيكسون يزعم أن أمريكا

تحمل للعالم رسالة تحريرية ودعوة للرخاء مع أن الواقع والتاريخ والجغرافيا يقولون جميعاً أن أمريكا أساساً قامت على إبادة شعب آخر هم الهنود الحمر وأن سجلها حافل بالجرائم والإعتداءات على الشعوب الأخرى وأنها ليست إلا امتداداً عضوياً للحضارة الغربية وهى حضارة تقوم على فكرة المنفعة اللاأخلاقية وهى أيضاً حضارة وثنية وإغريقية ذات مسحة مسيحية وأن سجلها حافل أيضاً بالجرائم فى حق الشعوب وحق البيئة وحق الوجود الإنسانى على الأرض بالكامل.

ونيكسون يزعم أن انهيار الشيوعية يعنى صلاحية الرأسمالية، مع أن الواقع والتحليل الموضوعى يقول أن انهيار الشيوعية لم يكن بسبب صلاحية الرأسمالية، بل كان بسبب الخلل النظرى والتطبيقى فى النظرية الشيوعية بل إن سقوط الشيوعية فى حد ذاته دليل على فساد الرأسمالية أيضاً وأنها بسبيلها إلى السقوط إن شاء الله.. لأن كلا من الشيوعية والرأسمالية إفراز لنفس الأرضية الثقافية ألا وهى الأرضية الثقافية للحضارة الغربية وما دام إفراز منها سقط فهذا دليل على فساد الأرضية نفسها أى فساد الحضارة الغربية بكل إفرازاتها ومن ضمنها الليبرالية الرأسمالية وعلى أى حال فإن الحضارة الغربية التى أفرزت حتى الآن الفاشية والنازية والشيوعية والصهيونية والرأسمالية، وإذا كانت الفاشية والنازية والشيوعية قد سقطوا جميعاً فإن الدور قادم إن شاء الله تعالى على الرأسمالية والصهيونية.

* * *

إننا لا نحلق فى الوهم أو الأحلام حين نقول أن المستقبل ليس لأمريكا بل للإسلام، وأن الإسلام هو النظام العالمى الجديد، وأن الحضارة الإسلامية هى المرشحة للسيادة فى العالم لأنها وحدها هى التى تحمل القيم الحضارية

الصحيحة نظرياً وتطبيقياً، وأن قيم الإسلام من العدل والحرية والمساواة واحترام حقوق الإنسان وإحترام التعددية الثقافية والحضارية وغيرها من قيم الإسلام الرفيعة هى قيم صادقة لأنها لا تنبع عن مصلحة بشرية قاصرة أو رؤية محدودة، بل هى قيم من عند الله تعالى الذى خلق الكون ويعلم ما يصلحه وما يفسده، وكذلك لأن الإسلام لم يقدم معايير مزدوجة مثل الحضارة الغربية المصابة بازدواج المعايير حتى النخاع فهى تبتلع لإسرائيل مثلاً أن تحتل الأرض، وتطرد السكان الأصليين، وتمارس أبشع أنواع القهر والتعذيب، وهى أيضاً تتجاهل إسقاط الطائرات مثل الطائرة المدنية الإيرانية فوق الخليج سنة ١٩٨٨ على يد سلاح البحرية الأمريكية وكذلك إسقاط إسرائيل للطائرة المدنية الليبية سنة ١٩٧٣ والتى كانت تحمل المذيعة المصرية سلوى حجازى وغيرها من الجرائم الإرهابية فى حين أنها تملأ الدنيا ضجيجاً حول اتهام بعض الليبيين بإسقاط طائرة أمريكية وأخرى فرنسية وتطالب بتسليمهم للعدالة الأمريكية أو الفرنسية أو الإنجليزية!!

١

ماذا يقول نيكسون ؟..

يتضمن كتاب نيكسون الذى نحن بصدده سبعة فصول هى :

(العالم الحقيقى، امبراطورية الشر السابقة، الوطن المشترك عبر المحيط الأطلنطى، المثلث الباسفيكى، العالم الإسلامى، نصف الكرة الجنوبى، تجديد أمريكا).. ومن خلال هذه الفصول السبعة يشرح الرئيس الأمريكى الأسبق أفكاره ويطرح آراءه فيما حدث وسوف يحدث فى العالم والتحديات التى تواجه أمريكا لكى تفرض قيادتها وهيمنتها على العالم وتحقق حلمها فى جعل القرن الواحد والعشرين قرناً أمريكياً.

وفى الفصل الأول يحلل نيكسون أحداث العالم فى السنوات الأخيرة ويصل إلى نتيجة مؤداها أن الشيوعية قد انتهت ولكن ليس معنى ذلك نهاية التاريخ ولا نهاية الصراعات، وينتقد نيكسون الشعار الذى يقول به بعض الأمريكيين : أن على أمريكا أن تعود إلى بيتها بعد الإنتصار الذى حققته، ويرى أن هذا الشعار ليس صحيحاً بل محض خيال، يقول نيكسون: «لقد ثبت فشل الشيوعية ولكن الصراعات القبائلية والدينية، القديمة قدم الأزل ما زالت مصدر كثير من الحروب والثورات، ويصل نيكسون إلى نتيجة مؤداها أن العصر الجديد ربما يكون أكثر عنفاً من العصر الذى سبقه.

ويرى نيكسون أيضاً أن القائلين بأن القوة العسكرية لم تعد لها ضرورة ، مخطئون خطأ كبيراً ويدعو نيكسون إلى التأكيد على استمرار التفوق العسكرى الأمريكى والمزيد من القوة العسكرية لأنه إذا كانت الحرب الباردة انتهت فإنه ربما تنشأ حرب ساخنة فى مكان آخر. يقول نيكسون: «إن رسالة الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة يجب أن ترتكز على موقف صلب نابع من حقائقها السياسية والجغرافية وليس على الرمال الهشة للمثالية غير الممكن تحقيقها، إن الدول لديها مبادئها ومصالحها ولكى

تتمكن من تحقيقها يجب أن يكون لديها القوة لذلك، بما فى ذلك قوة السلاح، لأن مصالح الأمم قد يتعارض بعضها مع البعض الآخر، وفى حالة عدم وجود حكم يرتضيه الطرفان فإن هذا التعارض لن تحسمه إلا الحرب هكذا كان الوضع قبل الحرب الباردة وفى أثنائها وسوف يستمر بعدها وسوف تظل هذه القاعدة سارية طوال الحياة».

ولا ينسى نيكسون بالطبع أن يقدم مغالطة معروفة قائلاً: «أن على أمريكا أن تقوم بدور الريادة فى العالم لتنشر أفكارها ومبادئها وتكون مثلاً يحتذى بين دول العالم، وأن أمريكا لا تملك تطلعات إمبريالية أو إستعمارية تجاه الدول الأخرى» ! (علامة التعجب من عندنا).. على أن نيكسون يعود فيعترف دون أن يدرى أنه لا مثالية فى السياسة وأن على السياسة الأمريكية ألا تكون مثالية بل واقعية حتى لو كانت غير أخلاقية وأن على الحكومة الأمريكية . إقناع الشعب الأمريكى بأن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية مشروعة بصرف النظر عن تعارضها مع مصالح الآخرين، وأنه يلزم استخدام القوة فى حماية المصالح الحيوية لأمريكا. ثم يعود نيكسون فينسى المصالح قائلاً: «إن علينا أن ننشر الفضيلة فى العالم وفقاً لمعتقداتنا الدينية» (ص٢٣).

ويقسم نيكسون مصالح الولايات المتحدة إلى درجات حسب الأولوية فبعضها حيوى وبعضها حساس وبعضها هامشى، على أن الغريب فى الأمر أن نيكسون جعل الدفاع عن اسرائيل من المصالح الحيوية لأمريكا.

وبالطبع ينهى نيكسون هذا الفصل بفروضه المشروطة قائلاً: «إن أنظار العالم تتجه إلى أمريكا الآن لكى تخرجه من مشاكل ما بعد الحرب الباردة، وأنه لأول مرة فى التاريخ تبدو الفرصة سانحة لكى نجعل القرن القادم عامراً بالحرية والسلام والتقدم، ولا توجد اليوم أى دولة خلاف

أمريكا تستطيع تحقيق ذلك وقد حانت الآن الفرصة الصادقة لتحقيق ذلك، ويجب علينا أن ننتهز الفرصة».

وفى الفصل الثانى.. يتحدث نيكسون عن التحدى الذى يواجه أمريكا من الإتحاد السوفييتى السابق، أو روسيا ودول الكومنولث حالياً، وفى هذا الفصل كلام كثير لا يهمنا، ولكن فيه أيضاً ما يهمنا فى إلقاء النظرة على الإنتهازية الأمريكية وإصرار أمريكا على تصدير قيمها الحضارية والسياسية والاجتماعية كشرط لتقديم المعونة إلى أى دولة، فلابد لتقديم المعونة الأمريكية إلى دولة ما أو شعب ما أن يقبل هذا الشعب مثلاً تقييمه من مثل السوق الحرة، أى الرأسمالية واقتصاديات السوق وغيرها من القيم الأمريكية والغربية عموماً، وكذلك يمكننا فهم التكتيك الأمريكى الذى تم اتباعه مع جورباتشوف ويلتسين، وتفضيل الأخير على الأول، ودفع الأمور فى الاتحاد السوفييتى ليس إلى التخلى عن الشيوعية فقط بل وإلى تفكيك الإتحاد السوفييتى كله بل وتفكيك روسيا ذاتها فى المستقبل إذا أمكن وكذلك إضعافها بكل السبل دون توصيلها إلى مرحلة الموت وهى سياسة أمريكية معروفة تتلخص فى دفع البعير إلى الغرق ثم انتشاله قليلاً ليتنفس ثم تركه ليغرق ثانية وهكذا..!

على أن المثير فى هذا الفصل أن نيكسون ـ وفى إطار حديثه عن ضرورة تقليص الإمكانيات العسكرية الروسية وخاصة الصواريخ ـ تطرق أيضاً إلى ضرورة الحرمان التام لدول العالم الثالث الشريرة من هذه الصواريخ ومن القوى النووية برمتها، وفى حين وصف بعض هذه الدول بالشريرة مثل ليبيا والعراق وإيران وسوريا.. فإنه وصف إسرائيل بالطيبة وفى حين دعا إلى نزع سلاح الأولى من أى إمكانيات نووية وكذلك من القدرات الصارخية غير النووية فإنه لم يدع إلى الشىء نفسه بالنسبة

لإسرائيل، وليس مصادفة مثلاً أن تكون القوى والدول الشريرة التى ذكرها نيكسون وهى ليبيا والعراق وإيران وسوريا كلها دول إسلامية على أى حال هذا الأمر يكشف عن إزدواج المعايير الأمريكية بين العرب والمسلمين وبين اليهــود.

على أن من الجدير هنا أن نسجل لنيكسون صدقه ولو لمرة واحدة حين اعترف بفضل الجهاد الأفغانى فى إسقاط الشيوعية والإتحاد السوفييتى حين قال: «إن شجاعة واستبسال المقاومة الأفغانية كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية السوفييتية فى أوروبا الشرقية، فقد رأت هذه الشعوب، عندما فشل الجيش السوفييتى فى الإنتصار على المقاومة الأفغانية أن الفرصة قد سنحت لها وأن الكرملين ليس لديه العزم الكافى للسيطرة على الإمبراطورية السوفييتية».

ولعل دور الجهاد الأفغانى فى إسقاط الامبراطورية السوفييتية وانهيار الشيوعية أمر لا ينكره إلا مكابر بعد أن اعترف به نيكسون نفسه، ولعل هذا ما يؤكد بركة وقيمة الجهاد كقيمة إسلامية عظيمة كفيلة بتحرير الشعوب الإسلامية وانتزاع حقوقها واسترداد كرامتها بل والتأثير فى مجريات الأحداث الكونية ومستقبل النظام العالمى بأسره، وهو ما يؤكد أننا إذا استعدنا هذه القيمة «الجهاد» لأمكن لنا الإنتصار فى معركتنا الحضارية الحالية والمستقبلية ولأمكننا أن نحقق سيادة الإسلام وقيمه على العالم كله بإذن الله.

وقد يقول قائل إن الجهاد الأفغانى انتصر مثلاً بفضل الدعم الأمريكى نكاية فى السوفييت، ولكن هذا القول يفتقر إلى الموضوعية، لأن هذا الدعم الأمريكى كان محدوداً جداً، وحتى لو كان كبيراً فإنه لا يمكن لأى دعم خارجى أن يحقق نتائج ملموسة على أرض الواقع، لأن الفيصل فى

هذه المسائل هو قوة المقاومة بشرياً وسياسياً وعسكرياً، ولعل الدعم الأمريكى المزعوم لو كان حاسماً لكانت فرصة المجر أو تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٥٦، ١٩٦٨ أكبر لأن المواجهة مع الروس كانت فى هاتين الحالتين تستند إلى نظامين للحكم يمتلكان مؤسسات وإمكانيات دولهما فى حين أن الجهاد الأفغانى لم يكن يمتلك إلا الجماهير وإرادة القتال فى مواجهة الإتحاد السوفييتى السابق ومواجهة نظام حكم يملك ولو بالقمع إمكانيات الدولة الأفغانية.

وفى الفصل الثالث يؤكد نيكسون على حقيقة معروفة وهى أن الولايات المتحدة الأمريكية جزء لا يتجزء من الحضارة الأوروبية بكل قيمها وتراثها، بل إنه استخدم عنواناً لهذا الفصل يؤكد ذلك وهو: «الوطن المشترك عبر المحيط الأطلنطى»، كما أنه ختم الفصل بقوله: «علينا أن نسعى لبناء وطن مشترك عبر الأطلنطى من كاليفورنيا حتى كمشاته»، ويقول نيكسون أيضاً: «إن القيم الحضارية للغرب والإيمان بحقوق الإنسان وكرامته خلقت روابط فلسفية أقوى بكثير من جغرافية القارة». وإذا كان نيكسون يؤمن بأن الحضارة الغربية حضارة واحدة فى أمريكا وأوروبا بل وفى أوروبا الشرقية التى تحررت من الشيوعية أخيراً، فإنه يجعل أمريكا بالطبع هى قائدة هذه المجموعة والمسئولة عن حماية هذه الحضارة ونشر تلك القيم ويحذر طبعاً من إمكانية أن تكون أوروبا الموحدة تحدياً كبيراً للإنفراد الأمريكى بالقيادة والقوة، وهو يدعو إلى عدد من الإجراءات والسياسات التى تحول دون أن تكون أوروبا الموحدة قوة منافسة أو بديلة لأمريكا وأن تظل أمريكا هى القوة الكبرى والقائدة والوحيدة إذا أمكن.

ولعله قد يتبادر إلى البعض أن هناك تناقضاً فى كلام نيكسون، فكيف يتحدث عن وحدة حضارية وقيمية بين أوروبا وأمريكا ويحرص فى

الوقت نفسه على أن تظل أوروبا أضعف من أمريكا ، ولكن كلام نيكسون هنا متسق مع نفسه بل ومع كل القوانين التاريخية والاستراتيجية، لأنه إذا كان هناك تناقضاً جوهرياً بين الحضارة الغربية ككل بما فيها أوروبا وأمريكا وبين الحضارات الأخرى وخاصة الحضارة الإسلامية وأن قوى الحضارة الغربية تسعى لابتلاع وتدمير الحضارات الأخرى، فإن هذا لا يمنع من وجود تناقضات ثانوية قوية أو ضعيفة بين قوى الحضارة الغربية بعضها بعضاً، ولكن يجب علينا أن ندرك أنه مهما كانت هذه التناقضات بين قوى الحضارة الغربية قوية فإنها تظل فى إطار التناقضات الثانوية وأنها تتلاشى سريعاً بمجرد ظهور التناقض الجوهرى، فهذه القوى تنسى خلافاتها سريعاً تجاه المسلمين مثلاً.

وفى الفصل الرابع يتحدث نيكسون عن مستقبل العلاقات الدولية فى المثلث الباسفيكى الذى يضم روسيا والصين واليابان، وبالطبع يدعو ويخطط لأن تكون الولايات المتحدة الأمريكية هى القائدة والمهيمنة فى هذا المثلث، فهو يلمح إلى الخلافات والصراعات والحروب بين دول هذا المثلث ويلوح بإمكانية استخدامها لإضعاف هذا المثلث ووقوعه بالكامل فى الهيمنة الأمريكية، كما يقدم نيكسون روايته لكيفية إدارة العلاقة مع المارد الاقتصادى اليابانى وكيفية ترويضه لصالح أمريكا ، وكذلك عن المارد البشرى الصينى وكيفية اختراقه والقضاء على الشيوعية فيه والسياسة الأمريكية التى يراها مناسبة لذلك، ويخلص نيكسون إلى القول: «إن الولايات المتحدة الأمريكية هى الوحيدة التى تملك تأثيراً محسوساً على الدول التى تقع على طرفى المحيط الباسيفيكى والذى يمكن أن يؤدى إلى التوازن والاستقرار بين الدول فى هذه المنطقة». ويقول أيضاً: «يجب أن يكون وجودنا فى الباسيفيكى بحجم كاف يمنع وجود

فراغ أمنى فى المنطقة». ويضيف: «بالرغم من أن علينا أن نتجنب الظهور بمظهر المحرك للأحداث فى منطقة الباسيفيكى، إلا أن لدينا دوراً يجب أن نقوم به، فالولايات المتحدة هى الوحيدة التى لها القدرة على أن تحفظ توازن القوى فى المنطقة، وهذا هو الشرط الأساسى للتقدم والإزدهار».

وفى الفصل الخامس، الذى جاء تحت عنوان «العالم الإسلامى» ـ وهو أهم وأخطر فصل فى الكتاب باعتباره يمسنا كمسلمين، ويشكل رؤية أمريكية لمستقبل العلاقة مع الإسلام ـ يطرح نيكسون عدداً من الأفكار والتصورات حول الإسلام، كما أنه يرسم الإستراتيجية التى ينصح الغرب باتباعها إزاء العالم الإسلامى.

وعلى أى حال فإن نيكسون قد قال العديد من الحقائق ولكنه أراد بها باطلاً، كما أنه أورد العديد من المغالطات حول العالم الإسلامى.

بداية يعترف نيكسون: «بأن الإسلام ليس مجرد دين، بل هو أساس لحضارة كبرى، نحن نتكلم عن العالم الإسلامى كوحدة واحدة ليس بسبب وجود لجنة مركزية إسلامية تدير سياسة المسلمين فى العالم، ولكن لأن الدول الإسلامية تجمعها تيارات سياسية وثقافية واحدة نابعة من الحضارة الإسلامية ككل، وتسرى هذه التيارات فى جميع البلدان الإسلامية بصرف النظر عن الاختلافات بين هذه البلاد وبعضها.. ويعترف نيكسون أيضاً: «أنه بينما كانت أوروبا ترتع فى غياهب العصور الوسطى كانت الحضارة الإسلامية فى أوج ازدهارها، لقد أسهم الإسلام كثيراً فى تقدم العلم والطب والفلسفة، وينقل نيكسون عن ويل ديورانت فى كتابه «عصر الإيمان»: «أن المسلمين قد ساهموا مساهمة فعالة فى كل المجالات وكان ابن سينا من أكبر العلماء فى الطب والرازى أعظم الأطباء والبيرونى أعظم الجغرافيين

والحسن بن الهيثم أكبر علماء البصريات وجابر بن حيان أشهر الكيميائيين وكان العرب روادا فى التربية والتعليم، فقد قال ديورانت فى هذا الشأن: إنه عندما تقدم روجر بيكون بنظريته فى أوروبا بعد ٥٠٠ عام من ابن جبير قال إنه مدين بعلمه إلى المغاربة فى أسبانيا الذين أخذوا علمهم من المسلمين فى المشرق». ويضيف نيكسون: «وعندما ظهر النوابغ والعلماء فى عصر النهضة الأوروبى فإن نبوغهم وتقدمهم كان راجعاً إلى أنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامى».

ويعترف نيكسون أيضاً «أن الشعوب الإسلامية جميعها تفخر بعراقتها وتاريخها وأن الإسلام قد وقف بصلابة ضد الشيوعية أقوى كثيراً مما وقفت المسيحية ضدها، وأنه كان للوازع الدينى الإسلامى فى الدول الإسلامية أكبر أثر فى عدم تغلغل السوفييت فى العالم الإسلامى».

ويقول نيكسون: «إن المسلمين يزيدون على المليار نسمة، ويعيشون فى ٣٧ دولة من دول العالم، وينتمون إلى ١٩٠ جنسية ويتكلمون مئات اللغات واللهجات وهذا مصدر قوة كبير لهم، وأنهم يسيطرون على معظم البترول الموجود فى العالم ويتمتعون بخصوبة هائلة فى مجال النسل ومن المتوقع تضاعف عددهم فى غضون عشرين عاماً. وأنهم يعيشون فى أرض يبلغ طول أضلاعها عشرة آلاف ميل وتمتد من مراكش إلى يوغسلافيا ومن تركيا إلى باكستان ومن جمهوريات آسيا الوسطى إلى اندونيسيا، كما يوجدون فى الصين والهند والاتحاد السوفييتى السابق».

وإذا كان نيكسون يعترف بهذه الحقائق، فليس ذلك من قبيل مدح الإسلام والمسلمين ولكن ليدق جرس الخطر وينذر الغرب والأمريكيين بأنهم يتعاملون مع قوة لا يستهان بها ليست مثل باقى القوى التى تحدث عنها من قبل، ولكنها قوة تمتلك التاريخ والجغرافيا والحضارة والموارد والسكان،

أى أنها تمثل تحدياً حضارياً كبيراً على الغرب وأمريكا.

ويعبر نيكسون عن هذا الأمر قائلاً: «هذه الإنجازات تبين ما كان عليه العالم الإسلامى فى الماضى، وكذلك تبين ما يمكن أن يكون عليه فى المستقبل إذا توقفت الحروب بين المسلمين وعدم الإستقرار السياسى».

ونيكسون من هنا يضع أولى خطته الإستراتيجية فى منع قيام الإسلام بتحدى الغرب وهو إزكاء الحروب بين المسلمين وعدم توقفها وكذلك إستمرار عدم الإستقرار السياسى فى العالم الإسلامى!!

ثم يكشف نيكسون عن نفسه أكثر قائلاً: «ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة وأنه مع التزايد السكانى والإمكانيات المادية المتاحة سوف يشكل المسلمون مخاطر كبيرة وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدوانى للعالم الإسلامى ويزيد هذا الرأى بأن الإسلام والغرب متضادان وأن نظرة الإسلام للعالم مقسمة إلى قسمين «دار الإسلام» و«دار الحرب» حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب وعلى الغرب أن يتحد ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة». ثم يبدأ نيكسون فى وضع تفصيلات خطته لترويض هذا المارد وإخضاعه للهيمنة الأمريكية، فيبدأ بالقول: «يتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة ودمويون وغير منطقيين، ويتذكر هؤلاء الأمريكيون ثلاثة حروب قامت بها الدول العربية لمحو إسرائيل ويتذكرون أيضاً احتجاز الرهائن الأمريكيين فى طهران، وهجوم الإرهابيين على القرية الأوليمبية فى ميونيخ والعمليات الفدائية ضد المارينز فى لبنان وتفجير الطائرات المدنية».

ولكن ليس كل المسلمين إرهابيين، فهناك مثلاً ـ والكلام ما زال

لنيكسون ـ كثير من الساسة فى الدول الإسلامية لا تزيد علاقتهم بالإسلام عن علاقتهم بمثله وتقاليده وعاداته.

ونيكسون هنا يحقق أكثر من هدف فى خطته، فهو يوضح للأمريكيين ضرورة تشجيع الإتجاهات المعتدلة والتى لا علاقة لها بالإسلام فى العالم الإسلامى، والتى ترفض الإرهاب، وهو فى الوقت نفسه يفتح الباب لهذه القوى لكى تزيد من اعتدالها حتى يرضى عنها الأمريكان، وينسى نيكسون أو يتناسى هنا أن هذا الإرهاب ما هو إلا جهادا وأن هؤلاء الذين شنوا الحرب على إسرائيل أو قاوموا الوجود الأمريكى فى لبنان أو طاردوا الإسرائيليين فى ميونيخ لم يكونوا إلا مجرد مدافعين عن أنفسهم فإسرائيل هى التى احتلت فلسطين ولم تذهب فلسطين إلى اليهود فى بلادهم مثلاً، والعرب الذين شنوا حرباً على إسرائيل كانوا فى الواقع يدافعون عن أنفسهم، وهؤلاء الذين احتجزوا الرهائن فى طهران أو طاردوا الإسرائيليين فى ميونيخ أو قاوموا التدخل الأمريكى والأوروبى فى لبنان، كانوا أيضاً يدافعون عن أنفسهم وكانت قضيتهم عادلة.

إن المسألة فى تقدير نيكسون وتقدير الغرب هو أن على المسلمين أن يتخلوا عن دينهم، أو على الأقل عن الجهاد ويتعاملون مع الإسلام بمنطق تعبدى فقط، أى أن يستكينوا للتدخل الأمريكى والإسرائيلى وألا يدافعوا عن أنفسهم تجاه العدوان الأمريكى والإسرائيلى وأن يقبلوا طواعية الإندماج فى قيم الحضارة الغربية ويتخلون عن قيمهم الذاتية، ولعل هذا يتضح من خلال تقسيم نيكسون للمسلمين إلى سنة وشيعة وصوفية مع أن الصوفية ليست طائفة بل هى موقف، إنما نيكسون هنا يريد للموقف الصوفى الذى يقطع صلة المسلم بالحياة والجهاد أن يكون هو الأصل فيجعله نيكسون عن علم أو عن جهل طائفة إسلامية ثالثة

تستحق الدعم والتشجيع الغربى، وكذلك فى تصنيف نيكسون للقوى السياسية فى العالم الإسلامى إلى أصوليين ورجعيين وتقدميين، والأصوليون عند نيكسون هم المصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وينادون بأن الإسلام دين ودولة ويحتدون بشدة على الغرب*، وبالرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل فهم ليسوا محافظين ولكنهم ثوار**».

والرجعيون حسب تعريف نيكسون هم الدكتاتوريون الذين يؤمنون بالحزب الواحد، أما التقدميون فإن نيكسون يقول عنهم: «هذه المجموعة نشاطها محسوس ولكن قل أن تشعر بوجودها، وهى تسعى إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر من الناحية السياسية والاقتصادية وتتميز هذه المجموعة بالمرونة ولا ينعتون الغرب بأنه ملحد».

وبالطبع هذه المجموعة التى تدعو إلى ربط المسلمين بالغرب، أى إفقادهم تميزهم الحضارى وخضوعهم للغرب بحكم توازنات القوة حالياً هم المجموعة المرشحة لدى نيكسون لتلقى الدعم والتشجيع من الغرب. يقول نيكسون فى هذا الصدد: «يجب علينا أن نعاون التقدميين فى العالم الإسلامى ففى ذلك مصلحتهم ومصلحتنا، فهم يحتاجون لأن يعطوا أنصارهم بديلاً لأيديولوجية الأصوليين المتطرفين*** وانغلاق الرجعيين».

ويضيف نيكسون: «إن مفتاح السياسة الأمريكية يكمن فى التعاون

---

* وهل هناك مسلم لا يريد استرجاع الحضارة الإسلامية ولا يهدف إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ولا يرى أن الإسلام دين ودولة، أما مسألة الحقد على الغرب فبسبب تجاربنا المريرة معه وبالتالى فمن المفروض أن يكون كل المسلمين أصوليين يا مستر نيكسون.

** لعل هذه الفقرة تثبت عدم دقة نيكسون وعدم دقة استعمال مصطلح الأصولية لوصف المسلمين الثوار.

*** أى استبدال الأيديولوجية الإسلامية بالأيديولوجية الغربية !

الاستراتيجى مع المسلمين التقدميين فقط*، وأنه يجب أن يغطى تعاوننا جميع المجالات الاقتصادية والأمنية**.

ولا ينسى نيكسون طبعاً التأكيد على نقطتين فى استراتيجيته مع العالم الإسلامى وهما استمرار اختلاف المسلمين وعدم وحدتهم ومحاولة تحديد نسلهم!

على أن من الطريف أيضاً أن نيكسون لا يمانع فى أن يقوم هؤلاء الموالون لأمريكا فى العالم الإسلامى بشتم أمريكا علناً إرضاء لشعوبهم وتهدئة لها بشرط أن يظل سلوكهم وسياستهم لصالح أمريكا، يقول نيكسون: «علينا أن نتقبل فى بعض الأحيان رفض أصدقائنا فى العالم الإسلامى لبعض تصرفاتنا التى تسبب لهم حرجاً سياسياً فى بلادهم، فعندما ألقت الولايات المتحدة القنابل على ليبيا إنتقاماً منها لمهاجمة بعض الجنود الأمريكيين قام كثير من الزعماء فى المنطقة بلعننا على الملأ، وبالثناء علينا فى سرهم، فيجب ألا يزعجنا أن تضطر الظروف أصدقاءنا أن يتفوهوا ببعض السباب ضدنا»!!!

وفى مسألة تسليح المنطقة أو نزع سلاحها، ينصح نيكسون أولاً بمد الدول الإسلامية بالأسلحة التى لا قيمة لها لسببين أولهما الحصول على أموال تلك الدول، وثانيهما منعها من محاولة تصنيع السلاح بنفسها لأنها قد تلجأ إلى ذلك بنفسها أو بالتعاون مع دول أخرى فى حالة حظر السلاح عليها تماماً.. أما بخصوص الأسلحة الإستراتيجية سواء النووية أو الجرثومية أو الكيميائية أو حتى الصواريخ التقليدية فإنه يجب ـ فى رأى

---

* أى المسلمين الذين لا يؤمنون بالأيديولوجية الإسلامية ولا القيم الحضارية الإسلامية ولا يريدون استعادة مجد الإسلام ولا تطبيق الشريعة الإسلامية وينفذون كل مطالب الغرب ولو على حساب شعوبهم.

** هل الأمنية هنا تعنى الاحتلال العسكرى، أم تعنى المشاركة فى ضرب الأصوليين؟

نيكسون ـ أن تمتنع أمريكا والغرب عن مد الدول الإسلامية تماماً بها*، وينصح نيكسون بتقديم السلاح إلى اسرائيل ومحصلة هذا بالطبع أن تصبح إسرائيل هى القوة العسكرية الوحيدة فى المنطقة.

وبخصوص إسرائيل والصراع العربى الإسرائيلى يقول نيكسون: «إن التزاماتنا تجاه إسرائيل عميقة جداً، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق، نحن مرتبطون معهم ارتباطاً أخلاقياً، إن إسرائيل ليست مكسباً إستراتيجياً للولايات المتحدة، بخلاف الرأى السائد فى هذا الشأن. إن تعاوننا فى أجهزة المخابرات والمناورات الحربية مهم ولكنه ليس حيوياً، ولكن التزامنا تجاه إسرائيل من ميراث حضارى، وأى رئيس أمريكى لن يسمح بتدمير دولة إسرائيل».

وهذا الكلام الخطير من نيكسون يعني أن التحالف بين إسرائيل وأمريكا ليس مجرد تحالف مصلحة ولكنه تحالف بين الحضارة الغربية واليهود على حساب الإسلام طبعاً، وهذا ما يؤكد النبوءة القرآنية التى تقول بأن هذا التحالف سيقع يوما ما..« ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾، وموالاة اليهود والنصارى لم تحدث إلا منذ عهد قريب ولكنها الآن أصبحت إحدى الركائز فى السياسة الدولية، وحتى الفاتيكان برأت اليهود من دم المسيح، كما أنها أعلنت أنها لا تمانع فى كون القدس عاصمة لإسرائيل، ومن المعروف أن هناك اتجاهاً مسيحياً بروتستانتياً يرى بوجوب دعم إسرائيل كواجب دينى لإقامة دولتها من النيل للفرات لأن هذا إحدى شروط ظهور المسيح.

ولكن نيكسون يرى أن من الضرورى إقامة سلام بين العرب وإسرائيل

---

* يصف نيكسون دولاً مثل ليبيا والعراق وإيران وسوريا والجزائر بأنها دولاً شريرة تسعى للحصول على السلاح النووى ! وينسى نيكسون أن إسرائيل حصلت بالفعل على هذا السلاح.

وأن الفرصة سانحة الآن لتحقيق ذلك، لأن العرب ضعفاء ومنظمة التحرير ضعيفة وروسيا مشغولة بترتيبات بيتها من الداخل، ويرى نيكسون أن السلام بين العرب واسرائيل ضرورى لهما وضرورى لأمريكا لأنها تحمل العبء الأكبر فى الخلاف بين العرب واسرائيل لأنها تمتلك علاقات اقتصادية ومصالح مع العرب والتزام أخلاقى تجاه إسرائيل وأن الصراع بين العرب وإسرائيل يكلف أمريكا كثيراً كما أن تأخير حل المشكلة سيقوى من نفوذ الأصوليين فى البلاد العربية وخاصة المجاورة لإسرائيل.

وفى نهاية هذا الفصل الخطير يطرح نيكسون رأياً غاية فى الخبث والخطورة قائلاً: «إن الحقبة القادمة سوف تكون حقبة بناء وتعاون لا حقبة صراعات وهدم».

ولا ندرى كيف يكون تعاون بين الظالم والمظلوم، وبين حضارة تقوم على النهب والقهر والعنف وحضارة تنادى بالتحرير والانعتاق والعدل، اللهم إلا إذا كان المطلوب منا أن نستسلم مبتسمين لسكين الجزار.

وفى الفصل السادس الذى جاء تحت عنوان «نصف الكرة الجنوبى» يتحدث نيكسون عن سوء الأحوال الاقتصادية والمعيشية فى عالم الجنوب الذى يحدده نيكسون بأنه الدول النامية فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية وشرق آسيا وجنوبها.

ويغالط نيكسون ويكذب حين يقول: «إن الغرب ليس هو السبب فى المجاعة وسوء التغذية والأمراض التى تصيب الدول الفقيرة».

وينسى نيكسون أن عمليات النهب والقهر والاستعباد وجلب الموارد والعبيد أثناء فترة الإستعمار كانت هى السبب فى تخلف دول الجنوب وأن الرخاء الذى ينعم به أهل الشمال ماهو إلا دماء وثروات أهل الجنوب.

وبالطبع يحدثنا نيكسون عن الواجب الأخلاقى الأمريكى فى مساعدة

نصف الكرة الجنوبى، إلا أن نيكسون ينسى نفسه ويعود فيضع تصوراً لهذه المساعدة تحقق فائدة للشمال أولاً، فهو يرى أن هناك مصلحة اقتصادية واستراتيجية كبيرة ومهمة لذلك تتمثل فى المحافظة على استمرار تدفق البترول والخامات من تلك الدول الأمر الذى يستلزم شيئا من المساعدة حتى لا تحدث ثورات متطرفة فى تلك الدول تمنع الغرب من الحصول على الخامات اللازمة له، وكذلك فإن نيكسون يرى أن مساعدة الجنوب ستعود بالفائدة على الغرب لأنها سوف تزيد صادرات الولايات المتحدة بما قيمته ٣ تريليون دولار* مما يعطيهم الحيوية فى نشاطهم الاقتصادى ويفتح مجالاً للعمل أمام الأمريكيين. ويعبر نيكسون عن ذلك قائلاً: «إن مزيداً من التقدم الاقتصادى فى الدول المتأخرة يعنى مزيداً من المال فى جيوب الأمريكيين»!!.

ويستمر نيكسون فى مناقشة فوائد مساعدة الجنوب بالنسبة لأمريكا قائلاً: «إن عدم التوازن فى مكان يبعد عنا بنصف محيط الكرة الأرضية له تأثير عميق هنا فى بلدنا، ومثل هذه الصراعات يمكن أن ينتج عنها اضطرابات فى تدفق البترول أو غيره من المواد الأولية مما يكون له أثر عميق على أمننا الداخلى، بل إن مسيرتنا الاقتصادية يمكنها أن تقع أسيرة لتصرفات عدوانية». ويضيف نيكسون : «ما لم نتبنى تطوير الاقتصاد فى الدول المتخلفة فسوف تزدحم حدودنا باللاجئين هرباً من الإقتصاد المتعثر فى بلادهم للبحث عن فرص عمل عندنا .. ولو أدرنا ظهورنا لهذه المشكلة اليوم فسوف نجد هؤلاء العمال يطرقون أبوابنا بعنف غداً».

وفى الفصل السابع والأخير، يقدم لنا نيكسون أمريكا بطريقة براقة لتكون قائدة العالم بلا منازع قائلاً: «أمريكا لديها دور مهم تقوم به فى

* التريليون ألف بليون، أى مليون مليون .

هذا العالم ولا يمكن أن تقوم به أى دولة أخرى، ربما تستطيع إحدى الدول أن تحل محلنا من الناحية العسكرية، وقد يصل البعض إلى ما وصلنا إليه اقتصاديا، ولكن ليس هناك إلا الولايات المتحدة التى تملك القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية لتقود العالم فى طريق الحرية، ومقاومة الإعتداء، والأهم من ذلك أن تأثيرنا لا ينبع فقط من القوة العسكرية والإقتصادية، ولكن أيضاً من الإعجاب بمبادئنا ومثلنا، ونحن البلد الوحيد فى تاريخ العالم الذى رفع إسمه بقوة مبادئه وليس بقوة سلاحه».

وفى الحقيقة فإن نيكسون هنا يصل إلى درجة لا تطاق من الكذب والنفاق فالحقيقة إن إسم أمريكا لم يرتفع بقوة مبادئها بل ارتفع على جماجم الشعوب ونهب ثرواتها، وإعجاب نيكسون بمبادىء ومثل الولايات المتحدة جعله ينسى أنها قامت أساساً من خلال جريمة إبادة شعب أمريكا الأصلى وهم الهنود الحمر، فالذين أقاموا أمريكا من أجداده ذبحوا ما لا يقل عن ١٠٠ مليون هندى وهو عدد لو ترك حتى الآن لكان يساوى ٥٠٠ مليون على الأقل، أى أن كل فرد فى أمريكا الآن لكى يوجد فيها جاء على جثة شخص من الهنود الحمر، ومبادىء الحرية وعدم الإعتداء التى يتحدث عنها نيكسون تتجاهل بالطبع ما قامت به أمريكا من عشرات الإعتداءات على لبنان وجرينادا وفلسطين من خلال دعم اليهود وليبيا والعراق وبنما والقائمة طويلة جداً.

على أى حال يعود نيكسون فيرسم خططه لتحقيق هدف أمريكا فى الإنفراد النهائى بقيادة العالم، ويقول إن على أمريكا أن تجدد قوتها حتى تستطيع ذلك وينصح الأمريكان بالإبتعاد عن العزلة وضرورة التصدى لمهمتهم الحضارية فى قيادة العالم.

ويذكر نيكسون الكثير من المغالطات حول الدور الأمريكى فى تحرير

العالم ويذكر الأمثلة على ذلك! ثم يتباهى قائلاً: «إننا مثاليون، والمثالية* كانت دائماً مصدر قوتنا وفى نفس الوقت نقطة ضعفنا، وقد كانت مثاليتنا هى السبب الرئيسى فى تأرجح سياستنا الخارجية بين الدفاع المستميت عنها أو الإبتعاد والإنعزال عن العالم الخارجى لولا أننا كنا مضطرين لمجابهة الأمر الواقع وعندما امتزجت مثاليتنا بالحقائق المجردة فإنها تركت سجلاً** فى قيادة العالم لم تتركه دولة فى الحاضر أو فى الماضى».

ثم يفرك نيكسون يديه فرحاً قائلاً: «إن إنهيار الشيوعية يمثل أقصى انتصار للمبادىء الأمريكية»***.

ويحدد نيكسون أن المطلوب من العالم اتباع أمريكا قائلاً: «هل تستطيع الولايات المتحدة أن تقوم بدور القيادة للعالم؟» ويجيب قائلاً: «الجواب بكلمة واحدة ويمكن للعالم أن يتتبع خطانا»..

ويحدد نيكسون القيم الأمريكية بأنها جزء من القيم الحضارية الغربية قائلاً: «إن الحضارة الغربية ليست شكلاً ظاهرياً فقط ولكنها أسلوب إنها الأسلوب الذى نتجه به إلى آفاق الحرية والابتكار وتحقيق الأهداف». ويكذب نيكسون مرة أخرى قائلاً: «تمثل أمريكا ثلاث قيم لها أهمية كبرى هى الحرية، الفرصة المتاحة، احترام الإنسان لذاته».

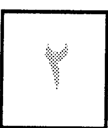
ثم يختتم نيكسون كتابه قائلاً: «نحن لسنا مجرد ركاب فى قطار التاريخ نحن قادته ولدينا الفرصة لنشكل قرناً أمريكياً ثانياً، علينا أن ننتهز الفرصة ليس فقط لأنفسنا ولكن أيضاً لغيرنا».

---

* مثالية ازدواج المعايير!

** السجل حافل بالجرائم يا عم نيكســون!

*** انهيار الشيوعية جاء بسبب فسادها ولا يعنى صلاحية المبادىء الأمريكية بل يعنى ضمناً فساد الأخير أيضاً لأنهما نبتاً من نفس الأرضية الثقافية وهى الأرضية الثقافية للحضارة الغربية.



هل تصلح أمريكا لقيادة العالم ؟

مع انهيار الشيوعية ، وانفراد أمريكا بالقوة العسكرية فى العالم، طرحت أمريكا نفسها كقيادة للعالم، واعتبرت أن هذه هى فرصتها ، وأنه يجب أن يكون القرن الواحد والعشرين قرناً أمريكياً، وأمريكا لم تقدم نفسها كقيادة عسكرية للعالم فقط، بل تريد أن تقدم نفسها كقيادة سياسية واقتصادية بل وقيمية وحضارية للعالم، أو بكلمة أخرى تريد الهيمنة على العالم فى كل شىء بدءاً من النفوذ العسكرى ومروراً بالنفوذ الإقتصادى والسياسى وانتهاء بالنفوذ الثقافى.

وأمريكا التى تريد الإنفراد بالقيادة فى العالم الجديد أو النظام العالمى الجديد كما يحلو لها أن تسميه لابد أن تستخدم فى هذا الصدد الجزرة والعصا ، فهى ترسم لنفسها صورة وردية ويرسم لها المؤيدون أو التابعون أو المأجورون صورة زاهية وقيماً رفيعة، فهى ذات مسئولية عالمية، ومدافعة عن الحرية، وتريد عالماً بلا حروب، وتريد مساعدة العالم كله على الرخاء والحريـة.

وبالطبع تقدم قيمها السياسية كما لو كانت أفضل القيم، فالتاريخ قد انتهى وأثبت صحة اقتصاد السوق، والليبرالية الرأسمالية، والنزعة الفردية وهكذا.

ومن ناحية أخرى فإنها تلوح بالعصا الغليظة لمن لا يريد الخضوع لهذا النظام العالمى الجديد أو الهيمنة الأمريكية وتهدد بأنها سوف تضرب بقسوة كل من يتحدى جبروتها سواء كان من الأعداء أو الأصدقاء على حد سواء*. يقول بريجنسكى : «إن أفول نجم الإتحاد السوفييتى معناه تفرد الولايات المتحدة بمركز الدولة العظمى ذات المسئولية العالمية».

---

* تعمدت أمريكا أن تسرب تقريراً استراتيجياً أمريكياً تعاونت فى وضعه مختلف الأجهزة الأمريكية، حذرت فيه أية دولة أو قوة غير أمريكية من مغبة منازعة أمريكا فى هيمنتها العالمية.

ويشرح نيكسون فى كتابه الهام «انتهزوا هذه الفرصة» ملامح تلك القيادة الأمريكية مقدماً لها صورة وردية بالطبع.

يقول نيكسون: سيعلم الجميع أنه بدون الولايات المتحدة الأمريكية فلن يكون هناك سلام أو حرية فى العالم أجمع سواء فى الماضى أو فى الحاضر أو فى المستقبل».

«يجب أن نضطلع بدور أساسى فى قيادة العالم لكى نجعله فى وضع أفضل مما هو عليه الآن، وليس لمجرد المحافظة على وضعه كما هو، يجب أن نعيد الثقة فى عقيدتنا، وفى مثلنا، وفى قدرنا، وفى أنفسنا، نحن موجودون لنصنع التاريخ، ونفتح أفاقاً جديدة للمستقبل».

«ليس هناك مكان أروع إثارة يمكن أن تعيش فيه ولا أرقى منه إلا أمريكا، لقد ظل الناس على مدى قرون طويلة يحلمون بالسلام والحرية والتقدم فى العالم أجمع، ولم نكن فى يوم من الأيام أقرب إلى تحقيق هذه الآمال من يومنا هذا».

«إن علينا حمل عبء قيادة العالم، لأننا شعب عريق، لقد عشنا فى حقبة من الزمن لم يتيسر لشعب آخر أن يعيش فيها، وله ما لنا من مميزات ولن يتيسر لغيرنا فى المستقبل، ـ على الأرجح ـ أن يمر بها، علينا أن ننتهز الفرصة ليس فقط لأنفسنا ولكن أيضاً لغيرنا».

«تمثل أمريكا ثلاث قيم لها أهمية كبرى هى: الحرية، الفرصة المتاحة، إحترام الإنسان لذاتـــه» ..

«إن الولايات المتحدة الأمريكية تستطيع أن تقوم بدور القيادة فى العالم وعلى العالم أن يتبع خطانا».

«لا تستطيع أى دولة سوى الولايات المتحدة أن تقوم بدور القيادة فى العالم، ربما تستطيع إحدى الدول أن تحل محلنا من الناحية العسكرية،

وقد يصل البعض إلى ما وصلنا إليه اقتصادياً، ولكن ليس هناك إلا الولايات المتحدة التى تملك القوى العسكرية والسياسية والاقتصادية لتقود العالم فى طريق الحرية، ومقاومة الإعتداء والأهم من ذلك أن تأثيرنا لا ينبع فقط من القوة العسكرية والاقتصادية ولكن ينبع أيضاً من الإعجاب بمبادئنا ومثلنا، ونحن البلد الوحيد فى العالم الذى رفع اسمه بقوة مبادئه وليس بقوة سلاحه».

إذن أمريكا تقدم نفسها للعالم كقيادة لا ينبغى لأحد أن ينازعها فيها، ليس فقط لقوتها العسكرية ولكن أيضاً لأنها تحمل قيماً عظيمة، وينبغى على العالم أجمع أن يدخل فى هذه القيم وأن يتخلى الجميع عن قيمهم الحضارية الذاتية، وأن يخضع وهو سعيد لقيادة أمريكا، وإلا فإن من يرفض أو يعارض أو حتى يتململ فإن الويل والثبور وعظائم الأمور من نصيبه.

وفى الحقيقة فإن هذه الصورة الوردية التى تروجها أمريكا ويروجها مؤيدوها صورة منافقة وكاذبة وتفتقر إلى الحد الأدنى من الجدية، فلا هى دولة مبدأية ولا هى دولة صاحبة قيم عظيمة ولا ممارسات عظيمة ولا هى دولة بهذه القوة التى يتحدثون عنهـا.

والصورة الحقيقية لأمريكا، تقول ان أمريكا ذاتها نشأت من خلال جريمة كبرى وهى إبادة شعب «الهنود الحمر» واستلاب أرضه والعيش فيها رغم أنفه وعلى حسابه «أباد المهاجرون الأمريكيون أكثر من مائة مليون من الهنود الحمر وهو رقم كبير بحساب وقت تنفيذه.. أى أن كل مهاجر قد أباد أربعة من الهنود الحمر وبالتالى فقد عاش على جماجم أربعة من البشر».

وهؤلاء الذين أنشأوا أمريكا أو سلبوها من أهلها كانوا من حثالات

المهاجرين والمغامرين والأفاقين الأوروبيين، وهؤلاء بدورهم أبادوا الهنود الحمر، ثم استقدموا الرقيق الإفريقي ليسخروه في بناء أمريكا، أي أن أمريكا قامت على النهب والإبادة والعنصرية، والتفرقة العنصرية التي عاشت أمريكا فترة طويلة من تاريخها القصير تمارسها بصوة رسمية مازالت موجودة ومتغلغلة في الوجدان الأمريكي ومازالت آثارها ملموسة حتى الآن في كل مكان بأمريكا، فأي عالم إذن يمكن أن نتوقعه تحت قيادة أمة نشأت على النهب والإبادة والعنصرية ؟!!

إن الأمة الأمريكية تمثل كل القيم البشعة للحضارة الغربية، تلك الحضارة التي قامت على نهب الشعوب واسترقاقها وأذاقت كل البشرية الويلات خلال فترة الاستعمار ولا تزال، وما دامت الأمة الأمريكية جزء من الحضارة الغربية فهي تمتلك كل مقوماتها الحضارية وهي العنف والقهر والنهب والعنصرية، بل إنه يمكن القول أن الأمة الأمريكية هي أسوأ التطورات في الحضارة الغربية لأنها نشأت من حثالة البشر في تلك الحضارة الغربية ولأنها نشأت من خلال جريمة «إبادة الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين».

إن سجل الجرائم الأمريكية مكتفظ ومفعم، فأمريكا التي تدعى أنها رفعت اسمها من خلال المبادىء وليس من خلال القوة هي نفسها التي قامت بهذه المجموعة الكبيرة من الجرائم وهي كالتالي:

- إبادة شعب أمريكا الأصلي «الهنود الحمر».
- استرقاق السود وتسخيرهم في بناء أمريكا.
- غزو نيكاراجوا سنة ١٨٨٣.
- الهجوم على بيرو ١٨٣٥.
- اقتطاع أرضاً مكسيكية هي ولاية تكساس حالياً (من سنة

١٨٤٦ ـ ١٨٤٨) بالإضافة إلى كاليفورنيا ونيومكسيكو.
- تدمير ميناء جراى تاون فى نيكاراجوا - غزو أورجواى - غزو قناة بنما (١٨٥٤).
- غزو كل من نيكاراجوا، كولومبيا عدة مرات منذ ١٨٥٧ - ١٨٩٩.
- التدخل فى هاييتى ١٨٨٨.
- التدخل فى تشيلى ١٨٩١.
- غزو كوبا واقتطاع قاعدة بحرية فى خليج جوانتا نامو (١٨٩٨ - ١٩٠١).
- غزو كولومبيا ١٩٠١ - ١٩٠٢.
- غزو هندوراس ١٩٠٢.
- التدخل فى كوبا ١٩٠٦.
- الإستيلاد على ست مدن فى هندوراس ١٩٠٧.
- سرقة البنك المركزى فى هاييتى عن طريق إنزال المارينز الأمريكيين فى هاييتى سنة ١٩١٤.
- قصف فيركروز ١٩١٤.
- دخول هاييتى مرة أخرى ١٩١٥.
- دخول المكسيك ١٩١٦ وفى نفس العام دخلت القوات الأمريكية الدومنيكان وسيطرت عليها بحكومة عسكرية حتى ١٩٢٤.
- التدخل فى السلفادور سنة ١٩٣٢.
- الإطاحة بحكومة جواتيمالا ١٩٥٤.
- عملية خليج الخنازير فى كوبا ١٩٦١.
- حصار كوبا جواً وبحراً ١٩٦٢.
- التدخل العسكرى فى فيتنام وكوريا لمدة طويلة وكذلك كمبوديا

ولاوس وتايلاند.

- مساعدة المخابرات الأمريكية فى قتل جيفارا فى بوليفيا ١٩٦٧.
- عملية غزو بنما وجرينادا والتدخل فى السلفادور (١٩٨٣ - ١٩٩٠).

أما ما خص العرب منها :

- دعم قيام إسرائيل والاعتراف بها ١٩٤٨، ثم تقديم عشرات المليارات إلى إسرائيل لدعمها فضلاً عن السلاح والمعلومات الإستخبارية وغيرها حتى اليوم.
- التدخل العسكرى فى لبنان ١٩٨٣.
- ضرب ليبيا ١٩٨٦.
- اختطاف الطائرة المصرية إبان حادثة السفينة أكيلى لاورو ١٩٨٦.
- إسقاط طائرة الركاب الإيرانية المدنية فوق مياه الخليج ١٩٨٨.
- تدمير العراق والكويت ١٩٩٠.

وهذه بالطبع مجرد عينات من التدخلات العسكرية الأمريكية، لأن السجل أكثر من أن يحصى.

وحتى بعد أن انهار الإتحاد السوفييتى وانفراد أمريكا بالعالم وتبشيرها بما يسمى بالنظام العالمى الجديد، فإن أول ممارساتها معنا كان إزدواج المعايير تماماً، فعلى حين تحمست لتنفيذ قرارات مجلس الأمن فيما يخص العراق فإنها تقاعست تماماً فيما يخص إسرائيل، وفى حين تعمل أمريكا على نزع سلاح العرب من أى نوع فإنها تترك لإسرائيل كل الحرية فى الحصول على السلاح بما فيه السلاح النووى*.

---

* من المعروف أن أمريكا تصر على حرمان أى دولة عربية أو إسلامية من الحصول على أى تقنية نووية وخاصة العراق، ليبيا، مصر، الجزائر، سوريا، إيران، باكستان.

ولعل ازدواج المعايير يتضح بصورة هائلة فى تزعم أمريكا للحملة على ليبيا بشأن اتهامها بتدمير طائرتين إحداهما فرنسية والأخرى أمريكية وقامت باستصدار قرارات من مجلس الأمن بهذا الشأن فى حين أنها تتجاهل إسقاطها لطائرة مدنية إيرانية فوق مياه الخليج سنة ١٩٨٨، وكذلك إسقاط إسرائيل لطائرة مدنية ليبية عام ١٩٧٣ وهى الطائرة التى كانت تحمل المذيعة المصرية المعروفة «سلوى حجازى». وعلى الرغم من أن أمريكا تملأ الدنيا صياحاً حول حقوق الإنسان فإنها تتجاهل تماماً حقوق الإنسان الفلسطينى المنتهكة على يد قوات الإحتلال الصهيونى.

* * *

وإذا كانت الصورة الوردية التى ترسمها أمريكا لنفسها أو يرسمها لها مؤيدوها صورة كاذبة ومنافقة وغير حقيقية، فإن الصورة الأخرى التى تكمل بها أمريكا ومؤيدوها حصارها حول العالم وهى صورة أمريكا القوية القادرة التى لا تستطيع قوة أخرى تحديها هى أيضاً صورة مبالغ فيها لإيقاع الرعب فى نفوس الآخرين، وأن الصورة الحقيقية لأمريكا ليست بهذه القوة ولا بهذه القدرة ويمكن بالصمود والمواجهة أو بعوامل الضعف الداخلية الأمريكية أن تسقط هذه القوة بأسرع مما نتصور.

إن الحقائق المعروفة والمنشورة تقول إن أمريكا أكبر بلد مدين فى العالم حالياً، وميزان مدفوعاتها يعانى عجزاً هائلاً، وميزانها التجارى مع بلد مثل اليابان شديد الاختلال لصالح اليابان، وأن كثيراً من الصناعات والمؤسسات الصناعية الأمريكية، إما أفلست أو على وشك الإفلاس وأن البطالة تتفشى فى أمريكا وأن الإيدز والمخدرات وضعف مستوى التحصيل الدراسى والتفرقة العنصرية تعمل بقوة ونشاط على انهيار أمريكى قريب.

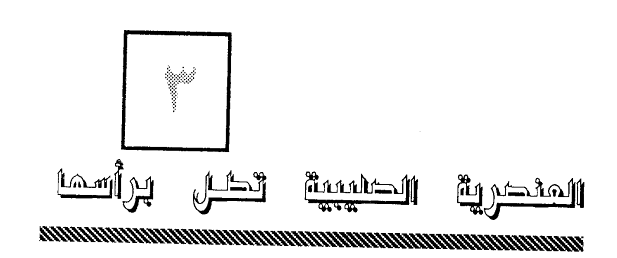
ونيكسون نفسه فى كتابه الأخير «الفرصة السانحة» يعترف ببعض هذه الحقائق..

يقول نيكسون: «وما لم تقم الدولة بتطوير سياسة التعليم لتخريج علماء وباحثين من شباب الأمريكيين فسوف نفقد تقدمنا الصناعى والتكنولوجى، وأمريكا بها أكثر من ٢٥٪ لم يحصلوا على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، وكثير من الذين حصلوا عليها يفتقدون المهارات اللازمة ليندمجوا فى المجتمعات الحديثة، أما فيما يختص بالعلوم والرياضيات فشبابنا يأتى فى ذيل القائمة التى تضم الدول الصناعية ولو أن لنا قليلاً من المدارس العامة على مستوى جيد، إلا أن أغلبها أقل من مستوى الدول المتخلفة، وقد انحدر مستوى أغلب المدارس وأصبح الطلبة لا يشعرون بالرغبة فى الدراسة بحماس، ويقضون ساعة أو أقل فى الدراسة بالمنزل وثلاث ساعات أو أكثر أمام التليفزيون يشاهدون برامج تافهة يومياً، إن أمريكا ينحدر مستواها فى التعليم شيئاً فشيئاً خصوصاً فيما يخص العلوم والتكنولوجيا».

وفيما يخص الاقتصاد يعترف نيكسون قائلاً: «حدث انخفاض فى رأس المال فى الصناعة مماثل لما حدث فى رأس المال البشرى فى التعليم، إن الإدعاء بأن النقص فى الميزانية الفيدرالية لا يهم غير صحيح إن نقصاً يعادل ٥٪ فى مجموع الإنتاج القومى يوضح إتجاهاً معيناً للإقتصاد، ولما كان العجز يعاد تمويله من المدخرات الشخصية والإستثمارات الأجنبية، فإن استنزاف هذه المدخرات فى قروض صغيرة الأجل بدلاً من استثمارها فى مشاريع طويلة الأجل يجعلها كالمياه التى تنخر فى القواعد التى يقوم عليها الإقتصاد».

ويقول نيكسون: «إن أمريكا لديها مشاكل عويصة فى الداخل،

فهناك ٣٨ مليوناً من سكانها لا يتمتعون بالرعاية الصحية لأنهم لا يستطيعون دفع اشتراكاتها، واستهلاك المخدرات فى أمريكا أكثر من استهلاك دول العالم مجتمعة رغم أنها تأتى فى المرتبة العشرين من حيث تعداد السكان، وفى أمريكا أكبر معدل فى ارتكاب الجرائم فى العالم والأشرار فيها فى تزايد مستمر بحيث جعلوا مدننا الكبيرة غير آمنة».


٣
العنصرية الصليبية تطل برأسها

ما أن انهارت الشيوعية، حتى شمر الغرب عن سواعده قائلاً: والآن جاء دور الإسلام، ولابد من القضاء عليه فهو وحده الذى يستطيع أن يقاومنا فى العالم الجديد الذى نحن بصدده.

وصحيح أن الروح العنصرية الصليبية فى الغرب ضد العالم الإسلامى والإسلام والمسلمين موجودة ولم تنقطع أبداً ومتغلغلة فى الوعى واللاوعى الأوروبى حتى النخاع، إلا أن انهيار الشيوعية جعل روح التعصب الصليبى فى أوروبا وأمريكا ضد الإسلام تظهر على السطح، وبدأ الحديث عن الإسلام باعتباره إمبراطورية الشر التى ينبغى تحطيمها، فالسياسيون والعسكريون الغربيون والأمريكيون تحدثوا عن ضرورة المحافظة على حلف الأطلنطى لمواجهة ما أسموه بخطر الأصولية الإسلامية، وما أن انتصر الإسلاميون فى انتخابات الجزائر حتى بدأت المؤامرات الأمريكية والفرنسية تتوالى بهدف إيقاف المسار الإنتخابى والإطاحة بمكاسب الإسلاميين وانتهى الأمر بإخراج أحدهم من الكهف وهو بوضياف وتسليم السلطة اليه ودعمه بالمال والسلاح والترويج الإعلامى لضرب الإتجاه الإسلامى فى الجزائر وحرمان الشعب الجزائرى من نتائج الانتخابات ومن إرادته وخياره.

وكان هذا ازدواجاً مروعاً فى المعايير كشف عن حقيقة الغرب الأوروبى والأمريكى الذى يفقد ما يدعيه من إيمان بالديمقراطية وصناديق الانتخابات وحقوق الإنسان إذا ما أفرزت الإتجاه الإسلامى.

وبدأ الغرب فى تنفيذ سياسته فى تحطيم وضرب أى عناصر للقوة فى العالم الإسلامى والتضييق علينا مع السماح لإسرائيل بكل السلاح والقوة والنفوذ. والبابا يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان اعتبر أن انهيار الشيوعية مناسبة للبدء فى تنصير المسلمين والقضاء على الإسلام، فحمل

عصاه وجاء إلى افريقيا وآسيا لإقامة الصلوات والتنصير والتبشير فى بلاد لا يسكنها مسيحى واحد، وكان البابا يوحنا بولس الثانى قد أصدر منشوراً يدعو فيه الكاثوليك من أتباعه إلى انتهاز فرصة السيطرة الغربية الأمريكية على العالم لنشر المسيحية فى كل بقاع العالم وخاصة البلاد الإسلامية وهو المنشور البابوى الذى نشرته جريدة نيويورك تايمز الأمريكية فى عدد ٢٣ / ١ / ١٩٩١.

ولأن الروح الصليبية والعنصرية فى أوروبا وأمريكا أصبحت من الوضوح والانتشار والعلانية فإن حتى المفكرين العلمانيين الذين لا يمكن اتهامهم بالتعاطف مع الإتجاه الإسلامى فى بلادنا لم يستطيعوا تجاهلها وإن كانوا أظهروا دهشتهم لها، فها هو محمد حسنين هيكل يعترف بذلك صراحة فى صحيفة الإندبندنت البريطانية وقد نشرت صحيفة مصر الفتاة ترجمة لهذا التصريح فى عدد ١٦ / ٣ / ١٩٩٢ وكذا صحيفة الشعب فى عدد ١٧ / ٣ / ١٩٩٢.

وليس هيكل وحده، فحتى لطفى الخولى أشار إلى أن روحاً صليبية واضحة تحرك السلوك الغربى تجاه العرب «الأهرام - صفحة الحوار القومى»

وكذلك محمد سيد أحمد «الأهالى، الأهرام»، سلامة أحمد سلامة ـ الأهرام.. وهكذا.

ومجلة دير شبيجل الألمانية واسعة الإنتشار حملت فى غلافها الصادر فى ٣٠ من سبتمبر ١٩٩١ عنواناً واحداً ضخماً يلخص الموجة العنصرية الجديدة التى تجتاح ألمانيا ضد العرب والمسلمين، يتكون هذا العنوان من كلمة واحدة هى «الكراهية» «Hass».

وقدمت الصحيفة بعض الأعمال العنصرية ضد المسلمين، مثل قيام العشرات من النازيين الجدد بالإنقضاض على شخص مسلم يجلس فى

الترام أو يسير فى أحد شوارع المدينة، أو إلقاء البعض من الطوابق العليا للمبانى أو إضرام النيران فى المنازل والمتاجر التابعة لعرب أو لمسلمين بل إن حكومة ألمانيا تريد تغيير الدستور للحد من هجرة العرب والمسلمين إليها وتبرير طردهم منها.

أما فى فرنسا فالموجة العنصرية ضد العرب والمسلمين تشتد يوماً بعد يوم، بل إن التصريحات النارية ضد الإسلام والعرب والمسلمين أصبحت الطريق السهل أمام الساسة الفرنسيين الذين يريدون العودة إلى الأضواء من جديد، فحتى جاك شيراك زعيم الحزب الديجولى يصف العرب والمسلمين بالوساخة والرائحة النتنة وافتعال الضجيج المتواصل!! والرئيس الفرنسى الأسبق جيسكار ديستان شن هو أيضاً هجوماً ضارياً على الأجانب من الجزائريين والأتراك وغيرهم وطالب بطردهم وإعادة النظر فى مسألة الجنسية الفرنسية بحيث لا تعطى إلا لذوى الدماء الفرنسية، ويقصد طبعاً حرمان هؤلاء الجزائريين الذين كانوا قد حصلوا على الجنسية الفرنسية من هذه الجنسية.

والظاهرة أصبحت من الانتشار فى فرنسا بين جميع السياسيين والزعماء من مختلف الإتجاهات ولم تعد مقصورة على جان مارى لوبن زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية وحده وإن كان مارى لوبن أكثرهم حدة فى هذا الصدد، إلا أن ما يثير الانتباه أن حزب جان مارى لوبن يكسب أنصاراً جدداً كل يوم.

والفرنسيون فى هذا الصدد لا يتورعون عن استخدام المصطلحات الدينية الواضحة، فهذا جاك كلود بارو رئيس مكتب الهجرة الدولية بفرنسا يعلن فى مقابلة صحفية «إن الديانة الإسلامية هى الأكثر إنغلاقاً وتشدداً بين الديانات، ومن ثم فهو يشترط على المهاجرين من المسلمين أن يتخلوا

عن الإسلام كشرط لاستيعابهم فى المجتمع الفرنسى، وأضاف بارو: «إن فرنسياً من أصل توجولى استطاع الوصول إلى مركز وزير دولة لأنه تنصر وأصبح يذهب باستمرار إلى الكنيسة».

أما فى بلجيكا فإن السجون أصبحت مكتظة بالعرب والمسلمين الذين ألقى القبض عليهم فى حملات مكثفة قامت بها الشرطة البلجيكية مما أدى إلى تظاهر هؤلاء واشتباكهم مع الشرطة التى اعتقلت ٢٠٠ شخص منهم فى حادث وصفته وكالة رويتر للأنباء بأنه أسوأ أعمال العنف العرقية التى شهدتها بلجيكـا.

ومن المعروف أن بلجيكا من أكثر الدول اضطهاداً للمسلمين ففى خلال النصف الأول من عام ١٩٩١ كانت بلجيكا قد طردت خمسة آلاف شخص منهم. أما فى بريطانيا فقد شهد عام ١٩٩١ موجة من العنف الدامى ضد المسلمين خصوصاً فى المدن التى تشهد تجمعات كبيرة منهم مثل مانشستر وليفربول وبرمنجهام، فقد ألقيت ثلاث قنابل على مساجد فى تلك المدن وأحرق مسجد رابع فى بلدة «ووكينج» غربى لندن.

وأمريكا بالطبع لم تشذ عن القاعدة، ففى خلال عام ١٩٩١ أيضاً تصاعدت أعمال العنف الجسدى والنفسى ضد العرب والمسلمين بل إن فروع مكتب التحقيق الفيدرالى قد استدعت عشرات الألوف من الشبان العرب والمسلمين، وكان أغرب تصريح فى هذا الصدد قد جاء على لسان وليام شستر رئيس مكتب التحقيق الفيدرالى وقال فيه: إن من هؤلاء المسلمين إرهابيين محتملين» وقد علق محام أمريكى من أصل آسيوى على ذلك التصريح بمرارة قائلاً: «إننى لم أسمع فى حياتى ولم أقرأ فى كتب القانون عن مشروع مجرم أو مشروع إرهابى».

***

وحتى فى الانتخابات الأخيرة التى أجريت أوائل عام ١٩٩٢ فى أكثر من بلد أوروبى نلاحظ ارتفاع النبرة العنصرية وزيادة مؤيديها، فقد زادت الأصوات الممنوحة لليمين المتطرف فى فرنسا وايطاليا وألمانيا وقد علق الأستاذ سلامة أحمد سلامة فى مقال له بالأهرام «١٢/٤/١٩٩٢» على ذلك قائلاً: «فى أوروبا يزحف اليمين المتطرف الآن نحو المقدمة وهذا إيذان بازدياد روح العداء تجاه العالم الثالث ونمو روح الكراهية والاستعلاء والأنانية تجاه الأجانب ويهدد بالحد من انتشار الجاليات الإسلامية».

أما وكالة رويتر فقد نقلت عن أحد أعضاء البرلمان فى ولاية بادن فورتمبرج عن الحزب الجمهورى قوله: «على المساجد أن ترحل من ألمانيا». ونقلت الوكالة أيضاً عن عضو فى برلمان شتوتجارت قوله: «إن الكيل قد فاض بالناخبين الألمان بسبب مسجد يجرى بناؤه على أطراف المدينة من أجل العمال الأتراك».. (الشرق الأوسط عدد ١٢/٤/١٩٩٢).

***

إن مجلة مثل مجلة «المصور»، وهى مجلة لا يمكن اتهامها بالتعاطف مع الإتجاه الإسلامى، اضطرت أن تعترف بالحملة الصليبية الجديدة فى الغرب، وانزعجت منها بالطبع .. ففى عرض لكتاب «نيكسون» الذى قدمته دار الهلال تحت عنوان «الفرصة السانحة» قالت مجلة المصور: «صورة المسلم فى العقل الأمريكى كما يقدمها نيكسون تبدو هكذا.. إنه غير متحضر ودموى، وبعض الحكام المسلمين يسيطرون بالمصادفة على ثلثى بترول العالم، وأنهم قاموا بثلاثة حروب لمحو إسرائيل من الوجود، واحتجزوا الرهائن فى إيران وقام بعض الإرهابيين منهم بالهجوم على القرية الأوليمبية وقاموا بنصب مذابح لبنان وتفجير الطائرات بعد خطفها وغزو الكويت الذى قام به صدام حسين تشبهاً بهتلر».

وتضيف مجلة المصور: «في الفصل الخامس من هذا الكتاب وعنوانه العالم الإسلامى فكرة تنطلق من أنه بعد سقوط الشيوعية فإن المسلمين فى العالم هم العدو الجديد، ومطلوب من الغرب وضع استراتيجية للتعامل معه، سواء بالحرب أو الصراع أو الاحتواء والتفاهم».

وتقول مجلة المصور: «إن الغرب يرى أن المتعامل مع العالم الإسلامى يشبه وضعه وضع الشخص الذى يعيش فى حفرة ضيقة ومعه مجموعة من الثعابين السامة».

ونفس هذا الانزعاج يعكسه الأستاذ فاروق جويدة فى صحيفة «الأهرام» عدد ٢٦ ابريل ١٩٩٢ تحت عنوان: «الغرب وعودة الوجه القبيح»..

يقول فاروق جويدة: «منذ سنوات قليلة أقيم فى ايطاليا ملهى ليلى أطلقوا عليه اسم «مكة»، ومنذ عامين تقريباً أصدر سلمان رشدى فى لندن كتابه الشهير «آيات شيطانية» هاجم فيه الرسول عليه الصلاة والسلام وسخر من زوجاته، وفى الأيام الأخيرة احتفلت أسبانيا بطرد المسلمين من ربوعها منذ خمسة قرون وقدمت فى الوقت نفسه اعتذاراً رقيقاً لإسرائيل عما لحق باليهود فى ذلك الوقت ونسيت تماماً ملايين المسلمين الذين شردتهم فى بلاد الله، وفى العام الماضى شهدت فرنسا حملة إعلامية ضارية ضد بقاء المسلمين فيها، وفى الأسبوع الماضى احتفلت الجامعات الأمريكية بزيارة سلمان رشدى لأمريكا وصدور طبعة شعبية من كتابه «آيات شيطانية» وسط ضجة إعلامية ضخمة ومهرجانات تكريم وحفاوة على المستويين الرسمى والشعبى، وفى الأسبوع الماضى ظهر حذاء جديد فى لندن سعره ١٢٠ دولاراً كتبت عليه آيات من القرآن الكريم باللغة العربية»!!!

ويضيف الأستاذ فاروق جويدة قائلاً: «مواقف غريبة تعيد إلى أذهاننا الوجه القبيح للغرب حينما إمتهن مقدساتنا وأوطاننا واستباح خيرات بلادنا واعتبرنا شعوباً من الدرجة العاشرة.. مواقف غريبة تشعل فى النفوس المرارة والألم وتسترجع الوجه البغيض للتعصب الأعمى وامتهان عقائد الآخرين».

ويضيف الأستاذ فاروق جويدة: «هل هى عودة لدق طبول الحروب الصليبية الملعونة»؟!! ويختتم فاروق جويدة مقاله قائلاً: «يستطيع الغرب أن يجيد حساباته عن القوات العسكرية وحجم الأرصدة ومكاسبه وخسائره فى البورصات العالمية، يستطيع أن يضع عرائسه المتحركة فى أى مكان يشاء، أو يستأجر أبواقاً تسبح بحمده صباح مساء، يستطيع أن يربى الخنازير الفكرية ويعيد تصديرها إلينا، ولكن الشيء الذى يخطىء الحسابات فيه هو إمتهان عقائد البشر، فقد تكون هذه منطقة الحسابات الخطأ، إن منطقة العقائد الدينية بصفة خاصة منطقة فى غاية الحساسية وهذا الهجوم الضارى على الإسلام والذى شارك فيه بضراوة رئيس سابق لأكبر دولة فى العالم سابقة خطيرة، إن كثيراً من العقول المستنيرة فى العالم الإسلامى سوف تفقد إيمانها بمستقبل أكثر إنسانية لهذا العالم فى ظل ما يسمى بالنظام العالمى الجديد إذا كانت مواجهة الإسلام أحد أهدافه، وإذا كان الغرب فى ظل النظام العالمى الجديد يتصور أن الأمة الإسلامية قد ماتت ولم يبق إلا تشييع جنازتها فالله قادر على أن يحيى العظام وهى رميم».

٤

انهيار الشيوعية لا يعنى صلاحية الرأسمالية

مع الإنهيار السريع والدرامى للشيوعية، والتفكك المأساوى للاتحاد السوفييتى السابق، استغل الغرب الفرصة وقدم أطروحته التى تقول ان النظرية الوحيدة الصحيحة فى هذا العالم هى الرأسمالية الليبرالية، واقتصاد السوق.

وتكاتفت أجهزة الإعلام فى أمريكا وكذا الدوائر الفكرية والاستراتيجية فى اختراع نظرية أو أيديولوجية جديدة، لتعطى هذا الكلام بعداً فلسفياً وحضارياً، وقدمت نظرية تقول ان تاريخ البشرية قد انتهى عند بلوغه أقصى تطوره السياسى والفكرى وذلك بوصوله إلى الليبرالية الرأسمالية الأمريكية أو الرأسمالية فى صورتها الأمريكية وكانت تلك الفكرة قد بدأت بمقال لكاتب أمريكى الجنسية يابانى الأصل هو «فرانسيس فوكوياما» ثم توسع فيه فأصدر كتاباً يحمل هذه الفكرة ويدلل عليها تحت عنوان «نهاية التاريخ والرجل الأخير»، وبالطبع وجدت هذه الفكرة وهذا الكتاب من يروج له بواسطة قوى الإعلام الأمريكية الجبارة كأيديولوجية جديدة وتفسير جديد للتاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى العالم على العالم كله أن يعتنقها أو يخضع لها.

وكان الإقتصادى الأمريكى روستو قد وصل إلى نتيجة قريبة من تلك التى وصل إليها فوكوياما إلا أنها لم تحظ بمثل هذا الانتشار الذى حظيت به نظرية فوكوياما لأن النظرية الأخيرة ظهرت فى وقت ملائم لها ووجدت من الأجهزة الأيديولوجية والعسكرية الأمريكية من يروج لها.

والرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون يقرر إن انهيار الشيوعية يعنى أن الحل الوحيد المتاح والصالح أمام البشرية هو الرأسمالية الليبرالية فى صورتها الأمريكية ، بل انه حتى يرفض الاشتراكية الديمقراطية وينعى على هؤلاء الذين ما يزالون يحلمون بها أو يطبقونها أو يروجونها.

يقول ريتشارد نيكسون فى كتابه «الفرصة السانحة»: «ويوجد خطر حقيقى بالنسبة لأوروبا فى أن تتحول بعد عام ١٩٩٢ إلى دولة اشتراكية ديمقراطية ، وأن تتدخل الحكومات فى الأسواق التجارية، وهذا هو أحد الأسباب التي من أجلها يجب أن توجد أمريكا فى أوروبا والعالم أجمع لكى تحول دون ذلك التحول، إن التزامنا تجاه الحرية والسوق الحر، يحتم علينا أن نقاوم القوى التى تحاول أن تجعل أوروبا تعود إلى الخلف».

إذن فغير مسموح بغير الرأسمالية الليبرالية، والسوق الحر، أو الرأسمالية على النمط الأمريكى، فليست الشيوعية فقط هى المرفوضة بل أيضاً أى شكل من أشكال الإشتراكية.

وخلاصة الأمر، إن القوى الإعلامية الأمريكية تروج الآن لمقولة ان انهيار الشيوعية يثبت أن الرأسمالية هى النموذج الصحيح الوحيد وأنه غير مسموح بأى نمط آخر غير الرأسمالية فى صورتها الأمريكية والسؤال الآن: هل حقاً أن انهيار الشيوعية يعنى صلاحية الرأسمالية وهو سؤال يقود إلى سؤال آخر وهو: لماذا انهارت الشيوعية؟ وهل كان ذلك بفضل ضغط النظام الرأسمالى إقتصادياً وإعلامياً عليها ؟ وهناك سؤال ثالث يطرح نفسه وهو: هل بعد انهيار الشيوعية هل تصلح الرأسمالية كبديل؟

وفى الحقيقة فإن الشيوعية لم تنهار بسبب الضغط الاقتصادى الرأسمالى عليها ولا بسبب الإعلام الرأسمالى أو اقتناع الشعوب التى كانت تعيش تحت الحكم الشيوعى بأن الرأسمالية أفضل، إن الشعوب التى ثارت على الشيوعية وأسقطتها لم تفعل ذلك بهدف الحصول على الرأسمالية، إن تلك الشعوب ثارت على الشيوعية لأن الشيوعية نظام فاسد فى أصله الفلسفى وفى تفسيره للتاريخ وفى منهجها السياسى والإقتصادى والإجتماعى، أى أنها سقطت من داخلها لأنها أفلست على

المستوى النظرى والتطبيقى، إن أحداً خارج الكتلة الشيوعية لم يكن يحلم بهذا الإنهيار السريع والمدوى للشيوعية وحتى فى الناحية الإعلامية فإن الشيوعية ظلت إلى آخر لحظة متفوقة على الرأسمالية وتجد من يقتنع بها من خارج السور الحديدى للدول الشيوعية أى من هؤلاء الذين لم يعرفوا فسادها لأنهم لم يعيشوا تحت حكمها، ولعل هذا الأمر يعترف به ريتشارد نيكسون نفسه فى كتابه «الفرصة السانحة» يقول نيكسون: «منذ حوالى اثنين وثلاثين عاماً قال لى خروتشوف فى موسكو بشىء من الصلف سوف يعيش أحفادك فى ظل الشيوعية، فأجبته قائلاً: سوف يعيش أحفادك فى حرية، وقد كنت متأكداً فى ذلك الوقت من خطأ ما قاله خروتشوف ولكنى لم أكن متأكداً من صحة ماقلته أنا».. أى أن نيكسون لم يكن متأكداً من قدرة الرأسمالية على إقناع الشعوب التى تعيش فى ظل الشيوعية على أن الرأسمالية صالحة، وإن كان متأكداً أن الشيوعية فاسدة.

وإذا بحثنا عن سبب خارجى لسقوط الشيوعية وانهيارها، فإنه بالتأكيد لم يكن بريق الرأسمالية ولا بريق القيم الغربية برمتها بل كان فى جزء كبير منه يعود إلى الإسلام وبريق الفكر الإسلامى، الذى كان هو الوحيد القادر على المغازلة الفكرية أمام الشيوعية والتصدى لها والصمود الأيديولوجى لها، وبالتالى فإن انهيار الشيوعية لا يعنى صلاحية الرأسمالية، بل يعنى صلاحية الإسلام والأيديولوجية الإسلامية.

وقد تبدو هذه نقطة غريبة على البعض، ولكن دعنا نستشهد برجل من أهلها وهو نيكسون أيضاً.. يقول نيكسون فى كتابه «الفرصة السانحة»: «لقد وقف الإسلام بصلابة ضد الشيوعية أقوى مما وقفت المسيحية ضدها، ولقد كان للوازع الدينى فى الدول الإسلامية أكبر أثر فى عدم تغلغل

السوفييت فى العالم الإسلامى».

إذن كان هناك سبب أيديولوجى خارجى لسقوط الشيوعية فهو الإسلام والمبادىء الإسلامية، ليس هذا فحسب بل وإذا كان هناك ضغط سياسى وعسكرى خارجى أدى أو أسهم فى إسقاط الشيوعية. فقد كان أيضاً للمسلمين وللجهاد الإسلامى الأفغانى، ونستدعى أيضاً نيكسون للشهادة، على طريقة وشهد شاهد من أهلها. يقول نيكسون: «إن شجاعة واستبسال المقاومة الأفغانية كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى انهيار الإمبراطورية السوفييتية».

وقد يقول قائل إن الصمود الأفغانى كان بسبب المساعدات الأمريكية.. وهذا قول يفتقر بالطبع إلى الجدية فإذا لم تكن هناك مقاومة واستشهاد واستبسال وإرادة فولاذية للمجاهدين فإن تلك المساعدات لم تكن تفيد شيئاً، ثم إن الحقيقة المعروفة تقول إن أمريكا لم تقدم مساعدات حقيقية للمجاهدين الأفغان، ونيكسون أيضاً يعترف بذلك يقول نيكسون: «وعندما قام الجيش الأحمر بغزو أفغانستان عام ١٩٧٩ كان رد فعلنا رمزياً فقد رفضنا مشاركتهم فى الألعاب الأوليمبية وأوقفنا صفقة حبوب للاتحاد السوفييتى وأرسلنا بعض الأسلحة التى عفا عليها الدهر للمقاومة الأفغانيـــة».

* * *

إذن فقد كان انهيار الشيوعية ليس بسبب صلاحيـــة الرأسـماليـة ولا بريقها الأيديولوجى ولا حتى ضغطها السياسى أو العسكرى، بل ان انهيار الشيوعية فى حد ذاته يحمل فى طياته عدم صلاحية الرأسمالية وفسادها أيضاً مثل الشيوعية تماماً، لأن كلا من الشيوعية والرأسمالية قد خرجا من نفس الأرضية الثقافية، وهى الأرضية الثقافية للحضارة

الغربية، وبالتالى فإن فشل أحد الإفرازات وثبوت فساده يعنى ضمناً فساد الأرضية الثقافية وفساد كل إفرازاتها.. يقول المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبى مؤكداً أن كلا من الشيوعية والرأسمالية يخرجان من نفس الأرضية الثقافية «إن المنافسة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة على زعامة العالم، وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالى على اجتذاب ولاء البشرية هو موضوع نزاع عائلى داخلى داخل أسرة المجتمع الغربى».

** ونصل الآن إلى السؤال الهام والخطير وهو بعد انهيار الشيوعية هل تصلح الرأسمالية لقيادة المسيرة البشرية ؟

وهذا يجعلنا نناقش الرأسمالية فى أصلها النظرى وفى تطبيقاتها، وأصل الرأسمالية إفراز طبيعى للحضارة الغربية، تلك الحضارة التى أفرزت الفاشية والنازية والصهيونية والشيوعية، وبالتالى فإنه من الطبيعى أن يكون مصير الرأسمالية مثل مصير باقى أخوتها إن شاء الله، لأنها نشأت مثلهم من نفس الأرضية الفاسدة.

إن الجهاز الإعلامى الغربى عموماً والأمريكى خصوصاً يقدم لنا الرأسمالية كتطور طبيعى داخلى فى المجتمع الغربى، فهل هى حقاً كذلك والجهاز الإعلامى الغربى يقول لنا ان الرأسمالية نجحت فى أن تحقق العديد من الإنجازات فى العالم الغربى بحيث أصبح مستوى دخل الفرد فى المجتمعات الرأسمالية مقارناً بالمستويات الموازية فى كثير من بلدان العالم الثالث ما لا يقل عن عشرين إلى أربعين ضعفاً فى الغالب.

والحقيقة أن الرفاهية التى تعيشها دول الشمال الرأسمالى لم تكن بسبب الرأسمالية بل بسبب نهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها وأن الرأسمالية ذاتها نشأت لتكون أداة هذا النهب، ولنستمع فى هذا الصدد لشهادة الأستاذ منير شفيق فى كتابه «الإسلام في

معركة الحضارة»..

يقول الأستاذ منير شفيق: «يجرى التركيز النظرى عند الحديث عن ولادة الرأسمالية على اعتبارها مرحلة فى سياق تاريخى متتابع تحكمه قوانين داخلية فى المجتمع، ولكن هذه مسألة لا تنطبق على المجرى الفعلى للتطور التاريخى، أى لا يصعب الإثبات ان عملية العنف الخارجى والتوسع والنهب التى مارستها أوروبا قامت قبل ولادة الرأسمالية، ولم تقم لتلبية حاجة قوى إنتاج رأسمالية أصبحت تلح عليها لممارسة العنف والنهب والتوسع ضد الخارج، إن الصورة فى أوروبا تقول إن الرأسمالية ظهرت لتلبى الحاجة الناشئة عن النجاح الذى أصابه العنف والتوسع والنهب الخارجى، فهى أصبحت ممكنة ومتاحة لا نتيجة تراكم داخلى نبع من تطور قوى الإنتاج وإنما جاء نتيجة تراكم جاء من النهب الخارجى ومن ثم سمح التراكم بتطوير قوى الإنتاج وإحداث تراكم داخلى مرتبط به ومضاف إلى التراكم الأساسى الذى جاء ويجىء من عملية العنف والتوسع والنهب.

إن مجىء المجتمع الرأسمالى بعد الإقطاع أو على أنقاضه لا يؤدى إلى الإفتراض تلقائياً بأنه تطور طبيعى فى أحشاء المجتمع الإقطاعى، لأن مجىء حدث بعد حدث فى التاريخ لا يعنى بالضرورة وجود رابطة سببية بينهما، وإنما ينبغى أن تدرس الأسباب الحقيقية لحدوث الواقعة الجديدة، ومن ثم يثبت إن كان هذا التتالى نتاج تطور طبيعى أم نتاج عوامل لا علاقة لها بتطور تلقائى داخلى فى الحدث السابق.

وتؤكد الوقائع التاريخية أن ممارسة الإقطاع الأوروبى للتوسع والنهب والعنف كان أسبق من تطور قوى الإنتاج الرأسمالية أو البرجوازية فى داخله، ومن ثم من الهام جداً تحديد أيهما أسبق أو تحديد أيهما كان سببا لوجود الآخر، وهنا تطرح الفكرة القائلة إن ممارسة العنف والتوسع والنهب

من الخارج هى التى ولدت الحاجة إلى تطوير قوى الإنتاج وساعدت عليه، فعندما وجدت أوروبا نفسها قد توسعت فى عدد من الأقطار الافريقية والآسيوية والأمريكتين بدأت ترى العالم كله قابلاً للوقوع الكامل فى قبضتها ، الأمر الذى جعلها بحاجة إلى نظام ديناميكى نشط قادر على اكتساح العالم كله والسيطرة عليه، وهذا ما جعل أوروبا تعيد صياغة نفسها فى البوتقة الرأسمالية، بما يخدم هذا الوضع الجديد ولآفاقه المستقبلية، قد يقول قائل ولكن التوسع الخارجى والنهب والعنف وجدت فى مجتمعات عديدة فى التاريخ ولم تتطور إلى رأسمالية، ولكن هذا القول مردود عليه، لأن حدوث التوسع هنا عاش مع تطور محدد للعلوم قد وصله العالم فى ذلك الوقت ساعد على استقبال الحاجات الجديدة واستخدامها فى تطوير أدوات الإنتاج، فضلاً عن السمات الخاصة الأساسية للأرضية التى قام عليها النمط المجتمعى الحضارى الأوروبى تاريخياً، مثل سمة الملكية الفردية والطبقية وما لعبته من دور عبر المراحل المختلفة ويقود هذا إلى عدم صحة القول بتطور طبيعى للرأسمالية من أحشاء الأقطاع، وإنما تصبح الرأسمالية نتاج حالة عالمية تكونت فى ظرف استثنائى سمحت لأوروبا أن تنجح فى اجتياح العالم بالقوة، ومن ثم فهى الابنة الشرعية لهذا الشرط العالمى ولا تستطيع أن تستمر إلا بإعادة توليده باستمرار، أى بإعادة السيطرة على العالم بالعنف وتحقيق أقصى درجات النهب وأقصى درجات الأرباح، ومن ثم سيطرة قلة من الدول المتصارعة فيما بينها على العالم كله ونهبه والمضى فى هذا الطريق حتى النهاية.

إن مسار تطور الرأسمالية لا يتجه إلى تحقيق الرفاهية والتقدم لكل الشعوب بل لعدد محدود جداً منها «أمريكا وأوروبا»، لأنه كلما تضخمت

تلك البلدان أكثر كلما أصبحت أكثر ارتباطاً بحالة السيطرة والنهب والعنف والتوسع، أى لا تعود قادرة على الكف عن العنف والنهب والسيطرة، إنه اتجاه التضخم باستمرار والعنف الأهوج والنهب بلا حدود، والجشع بحده الأقصى».

* * *

إذن فالذين يبشروننا بصلاحية الرأسمالية وأنها الكلمة الأخيرة فى التاريخ إنما هم يبشروننا فى الحقيقة بهيمنة ورفاهية وسيطرة دولة أو مجموعة دول قليلة على العالم كله تقوم فيه بدور النهب والعنف والسيطرة وبالطبع نحن من ضمن الدول والشعوب التى ستكون مادة النهب والعنف والسيطرة أى الضحية، لأن الرأسمالية لا تستطيع أن تعيش إلا بالنهب الخارجى والعنف والسيطرة.

وإذا كان هذا نصيبنا ونصيب الدول المستضعفة عموماً فى عالم الرأسمالية فإن حتى الدول التى ستقوم بدور السيطرة فى ظل الرأسمالية سوف تعود فتنهار هى الأخرى، لأنه من المحتوم أن ينتهى هذا العنف والنهب اللانهائى بتدمير نفسه، لأن ما يحدث أمامنا من التضخم فى القوة العسكرية وتلويث البيئة وثقب الأوزون والعنف اللانهائى يجعلنا نقول ان هذه الدول الرأسمالية المسيطرة تسير فى الإتجاه الديناصورى أو اتجاه التدمير الشامل، إنها تدمر كل شىء البيئة والفضاء، ولا تسمح لنفسها إلا بالإستمرار نحو التضخم حتى الإنفجار.

ولكن فى ظل هذا الوضع ما هو الحل، لنعود إلى الأستاذ منير شفيق الذى يقول: «إن مصير العالم سيظل مظلماً ما دامت تلك البلدان برأسمالييها قادرة على استخدام العنف، أما الأمل ببزوغ فجر جديد، وهذا لا يكون إلا إذا نجحت الثورة فى البلدان الإسلامية وفى بلدان آسيا

وافريقيا وأمريكا اللاتينية من جهة أو دمرت الدول الكبرى نفسها بشكل أو بآخر بحرب أو بدون حرب وأصبحت عاجزة عن المحافظة على سيطرتها وغير قادرة على استعادة تلك السيطرة من جهة أخرى، بل لابد من أن يصل هذا المسار الديناصورى للحضارة الغربية حتى منتهاه، فتصبح أرض تلك الحضارة عطشى إلى الخروج من الجاهلية والظلمات والدخول فى عالم النور أى الخروج من عبودية المادة والنهب والقوة والإنحلال الأخلاقى والحروب المدمرة حتى للحياة نفسها إلى عالم توحيدى واحد تتوازن فيه الجوانب العقيدية والفكرية والثقافية والأخلاقية فى حياة الفرد والجماعة والبشرية كلها، أى تتغير الغايات المتمثلة بتحقيق أكبر قدر من إشباع الشهوة والحاجات المادية والسلع والقوة والسيطرة على حساب الغالبية العظمى من العالم وعلى حساب فطرة الإنسان وجوهره، وهى تفعل ذلك بينما أصبحت تمتلك مخزوناً مروعاً من أسلحة الدمار الشامل خصوصاً النووية والجرثومية والكيماوية، ولا يتوهمن أحد أن ذلك لا يشكل خطراً محدقاً، وما وصول تلك الحضارة إلى هذا المخزون الرهيب إلا الدليل على اتجاه مسارها، وعلى جوهرها الهمجى والمتخلف والرجعى وهى العبارات التى طالما استخدمتها هى بحق غيرها من الحضارات ولكنها شديدة الإنطباق عليها بالرغم من كل تنظير يخفى تلك الحقيقة الصارخة، وهنا يحق للإسلام أن يطرح نفسه مشروعاً متألقاً أمام هذا الظلام الدامس الذى تنشره الحضارة الغربية».

٥

التحالف العنصرى بين أمريكا وإسرائيل

يلخص الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون فى كتابه «الفرصة السانحة» يلخص الموقف الأمريكى تجاه اسرائيل قائلاً : «إننى أتذكر بوضوح اجتماعاً حدث فى عام ١٩٧٣ مع المسئولين بخصوص حرب الشرق الأوسط، وكانت فى بدايتها ولم تكن هذه البداية فى صالح إسرائيل، وعندما سأل أحد أعضاء الكونجرس إذا كانت الولايات المتحدة ستتخذ أى إجراء فى هذا الشأن أجبته بلا مواربة «ليس هناك رئيس أمريكى يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل».. وأمرت عندئذ بعمل جسر جوى ليدفع عن اسرائيل الهزيمة. وعلينا الان أن نسأل أنفسنا سؤالاً عن مدى أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا لدرجة أنه ليس هناك رئيس أمريكى يمكنه أن يسمح بتصفية إسرائيل، ولدرجة أن يقوم الرئيس الأمريكى نيكسون فى ذلك الوقت عام ١٩٧٣ بعمل جسر جوى لنقل السلاح من المخازن الاستراتيجية للجيش الأمريكى لحماية اسرائيل.

هل أهمية إسرائيل هنا جيوبوليتيكية مثلاً، أم أن هناك تحالفاً بين أمريكا وإسرائيل لأسباب أخرى ليست سياسية ولا عسكرية فى جوهرها وليست بسبب أهمية أو عدم أهمية إسرائيل بالنسبة لأمريكا، لنترك أيضاً الرئيس الأمريكى الأسق يجيب على السؤال يقول نيكسون: «إن التزاماتنا تجاه إسرائيل عميقة جداً، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق، نحن مرتبطون معهم إرتباطاً أخلاقياً، إن إسرائيل ليست مكسباً إستراتيجياً للولايات المتحدة، بخلاف الرأى السائد فى هذا الشأن، إن تعاوننا فى أجهزة المخابرات والمناورات والمسائل الحربية مهم، ولكنه ليس حيوياً، لقد أثبتت الجيوش الإسرائيلية حقاً كفاءتها فى الحروب إلا أن تأثير إسرائيل محدود فى المنطقة، ولكن التزامنا تجاهها ينبع من ميراث قديم، فلن يستطيع أى رئيس أمريكى أو

كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل».

وإسرائيل هذه التى لا تمثل أى مكسب إستراتيجى للولايات المتحدة لا يستطيع لا الرئيس ولا الكونجرس التخلى عنها، وهى التى اعترفت بها أمريكا بعد دقائق من قيامها! وهى التى أسهم الغرب عموماً وأمريكا خصوصاً فى قيامها واستمرارها وتوسعها، وإسرائيل تحصل على ما تريد من السلاح ومن المواقف السياسية والفيتو وغيرها من أمريكا بدون تحفظ، وقد حصلت إسرائيل من أمريكا منذ ١٩٧٤ وحتى ١٩٨٩ على حوالى ٤٩ مليار دولار كمعونة، وحصلت على ١٦.٤ بليون دولار على هيئة قروض من عام ١٩٧٤ إلى عام ١٩٨٩ ثم تحولت هذه القروض بعد ذلك إلى منح لا ترد، ناهيك عن المعونات غير الحكومية، أو ضمانات القروض الحكومية أو التى تقوم بها البنوك الأمريكية لصالح اسرائيل.

وأمريكا التى لا تطيق أن ترى مصنعاً للكيماويات فى العالم العربى حتى ولو كان ينتج مبيدات للحشرات هى ذاتها التى تشجع وتساعد وتتجاهل قيام إسرائيل بصناعة القنابل النووية وكافة أسلحة الدمار الشامل.

لماذا كل هذا الدعم والحماس لإسرائيل، مع أنها على حد تعبير نيكسون ليست مكسباً استراتيجياً لأمريكا؟.

إن ذلك يرجع لسبب بسيط جداً وهو وجود تحالف عنصرى بين اليهود والأمريكان والغرب موجه ضد المسلمين، أى تحالف صليبى يهودى ضد الإسلام، وذلك فى إطار الصراع التاريخى بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية الصليبية، بل إن هناك تفسيراً صهيونياً للمسيحية ينتشر بصورة متزايدة يوماً بعد يوم وخاصة فى أوساط البروتستانت، ويقول هذا التفسير ان دعم إقامة إسرائيل وتحقيق امبراطوريتها من النيل

إلى الفرات هو واجب مسيحى لأن هذا الوجود والتوسع الإسرائيلى شرط لظهور المسيح فى فلسطين وقيامه بقيادة الجيوش المسيحية فى معركة ضد الكفار «المسلمين» وهى المعركة المذكورة فى الإنجيل «المحرف طبعاً» تحت اسم معركة «هرمجدون» أما على مستوى المسيحيين الكاثوليك، فإن الموالاة والتحالف مع اليهود يشق طريقه الآن على قدم وساق، فبابا الفاتيكان مثلاً ـ وعلى خلاف كل التراث الكاثوليكى ـ أعلن تبرئة اليهود من دم المسيح!

وبابا الفاتيكان نفسه يعلن الآن انه لا يمانع فى الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل بشرط حرية زيارة الأماكن المقدسة، وحتى أسبانيا التى طردت اليهود مع المسلمين منذ ٥٠٠ عام اعتذرت رسمياً عن ذلك لليهود، وطبعاً لم تعتذر للمسلمين !!

على أية حال فإن التحالف المسيحى اليهودى أمر جديد ولم يحدث إلا في القرون الأخيرة، لأن التاريخ بين اليهود والمسيحيين تاريخ مفعم بالصدام، ولقد تعرض اليهود للعديد من المذابح والإضطهادات الدينية المسيحية فى كل الدول المسيحية الأوروبية بدون استثناء على أن هذا التحالف الجديد، كان قد تنبأ به القران الكريم منذ أكثر من ١٤٠٠ عام وهذا نوع من الإعجاز القرآنى.

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم وهو أصدق القائلين : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ (سورة المائدة الآية ٥١).. ونظراً لأنه كان هناك عداء مستمر واضطهاد من المسيحيين لليهود على طول التاريخ فإن المفسرين القدماء كانوا يفسرون هذه الآية فى إطار أن الكفر ملة واحدة، أى تفسيراً

إجمالياً دون أن يجدوا أو يذكروا تفاصيل محددة لهذه الموالاة، أما الآن فقد تحققت هذه النبوءة القرآنية وخاصة بعد دعم قيام إسرائيل من الغرب المسيحى واستمرار هذه الموالاة والدعم بين الطرفين فى أكثر من مجال، وبذلك تحققت النبوءة القرآنية بصورة محددة وتفصيلية وهذا من إعجاز القرآن الكريم.. أما موقفنا الآن كمسلمين من هذه الموالاة بين اليهود والنصارى فيحددها الله تعالى لنا من خلال القرآن الكريم أيضاً فى هذه الآية وما بعدها: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء**).. و (**ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾.

و.. ﴿ **فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾.. (المائدة الآية ٥٢).

أى هؤلاء الذين يقولون الآن نحن لا نستطيع مواجهة أمريكا ولا إسرائيل ونخشى أن يدمروننا بأسلحتهم!

٦

الإسلام والغرب ..
تعاون أم مواجهة

هناك الآن أكثر من اتجاه بشأن العلاقة المفروضة بين الإسلام والغرب أو الإسلام وأمريكا باعتبارها الممثلة الكبرى للحضارة الغربية.

فهناك الغرب وأمريكا وبعض القوى المحلية عندنا تدعونا إلى الإلتحاق بالركب الحضارى الغربى والإندماج فى الحضارة الغربية والتخلى عن ديننا وحضارتنا وقيمنا أو على الأقل قصر علاقتنا به على العبادة الفردية والضمير وهؤلاء يقولون انه قد ثبت أن الحضارة الغربية حضارة عظيمة ويجب أن تسود العالم، أو يقولون أنه لا أمل ولا فرصة للمواجهة ومن الأفضل أن ننصاع لها، وهؤلاء بالطبع منافقون ومخادعون فلا الحضارة الغربية حضارة عظيمة، ولا هى حضارة ذات أخلاق، ولا هى قدر مقدور لا يمكن الفكاك منه، هؤلاء بالتحديد يدعوننا إلى الاستمرار فى أداء دور الضحية والذبيحة خاصة بعد أن شحذ الجزار سكينه وأصيب الآكلون بنهم شديد، وفضلاً عن أننا سنكون مجالاً للنهب فإنهم يطلبون منا أن نتخلى عن قيمنا وذاتيتنا ومبادىء ديننا وحضارتنا وهذا بالطبع مرفوض.

واتجاه آخر يقول بأن الحضارات تتفاعل مع بعضها البعض أو تتزاوج وأن الحضارة الغربية ليست غربية فقط بل إنسانية أى أنها استفادت من كل الحضارات التى سبقتها وتفاعلت وتزاوجت معها وخرجت فى النهاية لتكون حضارة الإنسانية كلها، وهذا الرأى خطير وبراق ولكنه خطأ، ولكى نعرف أنه خطأ ينبغى علينا أن نفرق بين أمرين أحدهما التفاعل والتزاوج والآخر التعاون فالتفاعل والتزاوج لا يتم إلا بين حضارات أو إبداعات حضارية من عائلة واحدة مثل الحضارة الرومانية واليونانية والإغريقية والجرمانية والسكسونية وهكذا.. وهذا التفاعل والتزاوج لا يتم بين حضارات من عائلات مختلفة، أى مختلفة نوعياً وكمياً، فلا يمكن مثلاً الحديث عن تمازج وتزاوج حضارى بين حضارة تقوم على الوثنية كالحضارة

الغربية وأخرى تقوم على التوحيد كالحضارة الإسلامية، والأمر هنا أشبه بعمليات التطعيم التى تتم فى النباتات، فلابد لكى تنجح عملية التطعيم هذه أن تكون بين أنواع معينة من النباتات تنتمى إلى عائلة واحدة ، أو عائلات متقاربة، ولكن هذا التطعيم يفشل تماماً إذا ما تم بين شجرتين لا ينتميان إلى عائلة أو عائلات نباتية متقاربة.

وفى الحقيقة فإن إمكانية التزاوج والتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية أمر مستحيل، لأن أى دراسة متعمقة للأساسات التى قامت عليها كل من عائلة الحضارة الإسلامية وعائلة الحضارة الأوروبية لا تترك مجالاً للشك فى أن لكل منهما طريقاً مختلفاً وسياقاً خاصاً، لهذا يهدف الحديث عن التواصل الحضارى أو التفاعل الحضارى أو التزاوج الحضارى إلى الإلحاق والتبعية الحضارية باعتباره جزءاً أساسياً فى عملية الإلحاق الاقتصادى والثقافى والسياسي والسيطرة العسكرية.

وينبغى فى هذا الصدد أن نلتفت إلى مجموعة من النقاط، فالداعون إلى الإندماج فى الحضارة الغربية، ينسون نقطة أساسية وهى أن الحضارة الغربية لن تقبل الإندماج بها وأن تصبح جزءا منها يستمتع بنفس الحقوق الحضارية معها، إنهم فقط يعنون بالإندماج أى نظل تابعين وأن نظل مجالاً للنهب دون مقاومة، ففرنسا مثلاً التى أدمجت الجزائر فيها وجعلتها جزءاً من فرنسا لم تقبل أن تعطى الجنسية الفرنسية للجزائريين مثلاً ولم تقبل أن يكون لهم نفس حقوق الإنتخاب التى للفرنسى مثلاً!

والداعون إلى التزاوج والتفاعل الحضاريين مع الحضارة الغربية ينسون الظروف المشبوهة التى ظهرت فيها مثل هذه الدعوة. فهذا الموضوع لم يطرق بعيداً عن غايات ذات علاقة بالصراع الدائر بين القوى الإستعمارية والشعوب المقهورة والمستضعفة، فعندما طرح منظرو أوروبا هذا الموضوع

كانوا فى أغلبهم يرمون إلى سيادة الحضارة الأوروبية على العالم بكل ما تحمل من فلسفات وقيم ومعايير ومفاهيم، وذلك من خلال الترويج للحضارة الأوروبية وضرب الحضارات الأخرى، أو طمسها، أو الإنقاص من قدرها أو خلطها بما يلغيها، وهو أمر يؤدى بالشعوب إلى فقدان هويتها ومقومات شخصيتها الأساسية، وإلى ضرب عوامل وجودها المادى والثقافى المستقل، فتصبح مكشوفة أمام طغيان المستعمرين ثم تتحول إلى تابع ذليل تلتقط الفتات، وتقف على العتبات، دون السماح لها بالدخول إلى صدر البيت.

والشيء الوحيد الممكن فى العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ولو من الناحية النظرية هو التعاون على أساس استقلال كل منهما وعلى أساس انفراد كل منهما بخصائصها الذاتية المتميزة دون أن تحاول السيطرة أو ظلم أو نهب الأخرى، والإسلام بالطبع يرحب بالتعاون ويدعو اليه فى إطار الاحترام المتبادل والعلاقات المتكافئة، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية التخلى عن النهب والظلم والعنصرية والعنف من أجل هذا التعاون؟!

لنأخذ مثلاً مجال العلوم الطبيعية، وهذه تنقسم إلى قسمين، قسم خاص بالحقائق العلمية والمكتشفات العلمية، وقسم خاص بتوجيه هذه العلوم فى اتجاه معين أى لانتاج سلعة ضرورية مثلاً أو كمالية، للقضاء على مرض أو لنشر مرض! لإنتاج أدوات تسعد الإنسان أو لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، لإصلاح البيئة والمحافظة عليها أو لتخريبها وتلويثها.

أى أن هناك شقاً علمياً وهناك شقاً قيمياً، والحضارة الإسلامية مثلاً عندما كانت متقدمة علمياً، كانت توجه هذه العلوم لإسعاد الإنسان وتلبية حاجات كل البشر، بل وكانت تسعى سعياً لنشر العلوم ولا تحجبها عن

الآخرين، لأن حبس العلم جريمة فى الفقه الإسلامى، أما الحضارة الغربية فإنها عندما تقدمت علمياً استخدمت منجزات العلم فى تحقيق أكبر وسائل النهب وقهر الشعوب الأخرى وظلمها بل انها أيضاً تحجب العلم عن الشعوب الأخرى، بل وتحاكم من يجرؤ على نقل شىء منها لبلاده «قضية الدكتور مهندس عبدالقادر حلمى مثلاً» بل تغتال كل من ينجح علمياً فى البلاد الأخرى.

على أية حال من الناحية النظرية يمكن التعاون فى الاستفادة من العلوم الطبيعية ونقلها، دون ربط ذلك بغايات وأهداف استخداماتها أي فى الشق العلمى دون الشق القيمى، ولكن هل تقبل الحضارة الغربية ذلك وهى التى تغتال العلم، وتحرم نقل العلم وتحاكم من يفعل ذلك، بل وتضرب أى نهضة علمية فى أى مكان خارج دائرتها الحضارية؟!

نؤكد مرة أخرى أن الإسلام يحضّ على التعاون، ويحرص عليه، ولكن التعاون غير الإندماج والتزاوج والإلحاق، التعاون يقوم على استقلال حضارى كامل فالحضارة الغربية عندما نقلت العلوم الطبيعية من الحضارة الإسلامية أخذتها دون شقها القيمى أخذتها وهضمتها ووجهتها وفقاً لمعاييرها الحضارية، وجهتها للتدمير والتلويث والإفساد وتحقيق أكبر قدر من آليات النهب، أما نحن فمن المفروض أن نأخذ العلوم الطبيعية من الغرب دون شقها القيمى فنهضمها وتصبح جزءاً من شخصيتنا الحضارية المستقلة فنوجهها طبقاً لمعاييرنا وقيمنا الحضارية فى إسعاد الإنسان وتحقيق الرفاهية لكل البشر وليس لنا وحدنا.

هل هناك فرصة للتعاون مع الغرب ؟..

قلنا أنه لا يمكن ولا نقبل لا الإلحاق الحضارى مع الغرب ولا التزاوج والتفاعل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية لانتمائهما إلى عائلتى

حضارتين مختلفتين ولأن هذا فى النهاية يعنى التحول إلى تابع ذليل يظل خاضعاً للنهب والسيطرة. وقلنا إن العلاقة الصحيحة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية هو التعاون على أساس الإستقلال الحضارى الكامل والشخصية الحضارية المستقلة، ولكن هل هناك فرصة التعاون؟.. هل يقبل الغرب هذا التعاون؟.. هل تاريخنا معه يسمح بذلك؟.. هل تركيبة الحضارة الغربية تسمح بذلك؟..

إن تركيبة الحضارة الغربية تقوم على النهب والقهر والعنصرية ورخاء ورفاهية أهل الحضارة الغربية جاء من نهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها، ولكى تستمر هذه الرفاهية لابد أن يستمر النهب والقهر، فهل أهل الحضارة الغربية مستعدون للتوقف عن النهب والقهر والعنصرية؟ هل هم مستعدون للتخلى عن رفاهيتهم القائمة على ثروات الآخرين من أجل التعاون معنا أو مع غيرنا؟

أعتقد أن ذلك صعب، بل يبدو مستحيلاً، وبالتالى فإمكانية التعاون بشروطها الصحيحة صعبة أيضاً، بل وتبدو مستحيلة وحتى إذا حدثت المعجزة وتخلى أهل الشمال عن القهر والعنف والعنصرية فماذا يبقى من الحضارة الغربية؟ إنهم هنا يسقطونها تماماً، أنهم يفقدونها سماتها الأساسية، أى يقبلون الإندماج فى نمط حضارى آخر وفى حالة دخولهم فى النمط الحضارى الإسلامى مثلاً، فإننا لن نعاملهم معاملة التابع، بل معاملة الإسلام التى تقول أنهم أصبحوا مثلنا تماماً لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

* * *

وإذا كانت تركيبة الحضارة الغربية لا تسمح بالتعاون إلا بانتفاء خصائص الحضارة الغربية ذاتها، وبالتالى فالتعاون هنا صعب ويكاد يكون

مستحيلاً، فإن رأى أهل الحضارة الغربية فينا وموقفهم منا لا يسمح بقيام مثل هذا التعاون، فهم ينظرون إلينا نظرة صليبية عنصرية حاقدة لا تقبل بأقل من تدمير حضارتنا تماماً وفى قول لا يخلو من الدلالة يقول المعلق السوفييتى فاسيليف: «إن أمريكا الآن تنظر إلى العالم الإسلامى بوصفه امبراطورية الشر الجديدة التى حلت محل الإتحاد السوفييتى السابق الذى كان إمبراطورية الشر القديمة والتى تركزت كل الجهود الأمريكية خلال أكثر من أربعين عاماً للقضاء عليها».

وهذا المعلق السوفييتى المشهور فاسيليف استخدم فى الحقيقة نفس المصطلح المستخدم دائماً من قبل الأوروبيين والأمريكيين تجاهنا، فالبابا أوربان الثانى الذى فجر الحروب الصليبية قال فى مجمع كلير مونت فى سنة ١٠٩٥: «إن إرادة الرب تحتم على المسيحيين تخليص بيت المقدس من أيدى إمبراطورية الشيطان». وعندها خر الكهنة الحاضرون راكعين تحت قدمى البابا!

والبارون دى كارافو يقول: «أعتقد أن علينا أن نعمل جاهدين على تمزيق العالم الإسلامى وتحطيم وحدته الروحية مستخدمين من أجل هذه الغاية الإنقسامات السياسية والعرقية.. دعونا نمزق الإسلام بل نستخدم من أجل ذلك الفرق المنشقة والطرق الصوفية.. وذلك لكى نضعف الإسلام، لنجعله عاجزاً إلى الأبد عن صحوة كبرى»*.

ويقول يوجين روستو اليهودى: «إن الحوار بين المسيحية والإسلام كان صراعاً محتدماً على الدوام، ومند قرن ونصف خضع الإسلام لسيطرة الغرب أى خضعت الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية والتراث الإسلامى للتراث المسيحى وتركت هذه آثارها البعيدة فى

* مروان بحيرى ـ الدراسات الاستعمارية فى الاحياء الإسلامى فى القرن ١٩.

المجتمعات الإسلامية»*.

يقول لورانس براون: «لقد كنا نخوّف بشعوب مختلفة، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لهذا الخوف، لقد كنا نخوّف من قبل بالخطر اليهودى والخطر الأصفر وبالخطر البلشفى إلا أن هذا التخويف كله لم نجده كما تخيلناه، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا اللدود، ثم رأينا البلاشفة حلفا لنا، أما الشعوب الصفر «الصين، اليابان» فإنها ليست خطيرة لهذه الدرجة، ولكن الخطر الحقيقى كان فى نظام الإسلام وفى قدرته على التوسع والإخضاع، وفى حيويته، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى»**.

ويقول مورو بيرجر في كتابه «العالم العربى»: «لقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام فليدمروا العرب ليدمروا بتدميرهم الإسلام»***.

ويضيف مورو بيرجر: «إن الخوف من العرب واهتمامنا بالأمة العربية ليس ناتجاً عن وجود البترول بغزارة عند العرب، بل بسبب الإسلام، ويجب محاربة الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التى تؤدى إلى قوة العرب، لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره»****.

ويقول ج. سيمون: «إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية»*****.

ويقول سالازار دكتاتور البرتغال السابق: «إن الخطر الحقيقى على

---

* نقلاً عن عبدالوارث سعيد «أمتنا والنظام العالمى الجديد».

** د. مصطفى الخالدى، د. عمر فروخ ـ التبشير والاستعمار.

*** جلال العالم ـ قادة الغرب يقولون ـ المختار الإسلامى.

**** محمد محمد الدهان ـ قوى الشر المتحالفة ـ دار الوفاء.

***** د. عمر فروخ ـ مرجع سابق.

حضارتنا هو الذى يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم»! ولما سأله أحد الصحفيين: ولكن المسلمين مشغولون بخلافاتهم عنا.. أجابه: «أخشى أن يخرج من بينهم من يوجه خلافهم إلينا»*.

ويقول ريتشارد هرير دكمجيان: «إن قلة فقط خارج نطاق العالم الإسلامى كانت قادرة على توقع انبعاث إسلامى فى البيئة المعاصرة إن ضعف البصيرة فى مجال التصور الذى أحدثته المادية الغربية والماركسية قد أعمى بقوة كل العلماء ورجال الدين الذين مالوا إلى استبعاد قوة الإسلام أو التقليل من شأنها»**.

ويحذر المفكر الألمانى باول شمتز قائلاً: «سيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق، عوداً على بدء من المنطقة التى قامت فيها القوة العالمية الإسلامية فى الصدر الأول للإسلام وستظهر هذه القوة التى تكمن فى تماسك الإسلام ووحدته العسكرية، وستثبت هذه القوة وجودها، إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لا تتوافر فى غيرها من تيارات القوى العالمية»***

ويقول المفكر الانجليزى هيلد بيلوك: «لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكاً قوياً، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه»****.

وما بين الحقد على الإسلام، وكراهيته، والدعوة إلى تدميره والقضاء عليه أو التخويف منه ومن خطره التى تسود الروح الفكرية الأوروبية

* جلال العالم - مصدر سابق.
** ريتشارد هرير دكمجيان - الأصولية فى العالم العربى - ترجمة عبدالوارث سعيد - دار الوفاء.
*** باول شمتز - نقلاً عن عبدالوارث سعيد - أمتنا والنظام العالمى الجديد.
**** نقلاً عن عبدالوارث سعيد - مصدر سابق.

على اختلاف مدارسها هل هناك فرصة للتعاون بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية؟.. الإجابة: هذا صعب بالطبع.

* * *

وإذا تركنا كل ما سبق والتفتنا قليلاً للتاريخ، نجده مفعماً بالصراع الدامى الذى خاضته الحضارة الأوروبية ضد الإسلام للقضاء عليه وخاضه الإسلام دفاعاً عن نفسه ونشراً لقيمه وإنقاذاً للعالم من الظلم والطغيان.

خاض الإسلام معارك شرسة ضد الحضارة الأوروبية المتوحشة منذ اللحظة الأولى واستطاعت جيوش الإسلام أن تنتصر فى اليرموك وعمورية وحطين، ثم بدأت أوروبا تستعيد المبادرة فظهرت الحروب الصليبية بدءاً من سنة ١٠٩٥ وحتى ١٢٩٣ فى المشرق العربى أما فى المغرب العربى فإن الإسلام استطاع أن يفتح افريقيا والأندلس.

واستمرت المعارك مع الحضارة الغربية فى الأندلس ثمانية قرون وفى بلاد المغرب العربى ألف عام* قبل دخول الأندلس وأثناء الحكم الإسلامى للأندلس وبعد سقوط الأندلس، ولم يتوقف الصراع مع الحضارة الغربية لا فى الشرق ولا فى الغرب، ففى الشرق ظهرت الخلافة العثمانية واستطاعت أن تنقذ العام الإسلامى من السقوط، ودخلت فى معارك طاحنة مع أوروبا إنتهت بفتح القسطنطينية ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح، بل وانتشرت جيوش الإسلام فى أوروبا إبان مجد الدولة العثمانية ووصلت إلى أسوار فيينا وروما، ثم بدأت أوروبا مرة أخرى تعاود الهجوم، وتعرضت الخلافة العثمانية إلى ضغط رهيب إنتهى بسقوطها، وقبل ذلك بقليل بدأت أوروبا حملتها الصليبية الثانية على العالم الإسلامى والمسماه باسم

---

* يطلق عليها أهل المغرب حرب الألف عام ـ راجع كتابنا «الجزائر تعود إلى محمد» ـ دار المختار الإسلامى..

الاستعمار بدءاً من هجوم نابليون ١٧٩٨ وانتهاء بسقوط معظم بلاد العالم الإسلامى فى قبضة الإحتلال الأوروبى، وفى المغرب العربى ظلت أوروبا ترسل حملاتها الصليبية إلى المغرب بعد سقوط الأندلس، فتعرضت الجزائر وحدها إلى ١٠٠ حملة صليبية فى أقل من ٣٠٠ عام بعضها برتغالى والآخر فرنسى أو إنجليزى أو أسبانى أو ألمانى أو بلجيكى بل وحتى أمريكى وانتهى الأمر بسقوط الجزائر فى يد الإستعمار الفرنسى ١٨٣٠ ثم تبعها المغرب وتونس.

إذن فبرغم أننا لا نرفض التعاون مع الحضارة الأوروبية فى إطار الاستقلال الحضارى لكل منا، إلا أنه لا التركيبة الحضارية الغربية تسمح بذلك ولا رأى قادتها فينا وأهدافهم تجاهنا تسمح بذلك، ولا تداعيات التاريخ القديم والحديث تسمح بذلك، وبالتالى لكى نعيش، لكى لا نخضع ونذوب وننتهى لابد من المواجهة.

* * *

حـرب شاملة فى مواجهة حرب شاملة ..

إذن فالمعركة حتمية، ولا سبيل هناك إلا المواجهة، أو الموت، وحتى المواجهة مع الهزيمة ربما تعطينا الفرصة فى الصمود والحفاظ على البذور صالحة تحت التربة لتعود من جديد لتثمر فى مرحلة أخرى، ولكن الإنصياع والخضوع لا يعنى فقط خسائر هائلة فى الحاضر بل يعني تدمير المستقبل، لأنها تطال البذور الكامنة تحت التربة.

والمعركة هنا معركة حضارية شاملة، أى سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية وثقافية، والغرب يستخدم معنا كل الوسائل السياسية والعسكرية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية أيضاً، وما دام الغرب يشن علينا حرباً شاملة فلابد من مواجهته بحرب شاملة، نواجهه بالكفاح

المسلح والحرب الشعبية، ونواجهه بالوسائل السياسية ونواجهه برفض الخضوع لوسائل النهب التى يمارسها ومن خلال بناء نمط اقتصادى مستقل وغير تابع ويعتمد على قوانا الذاتية ويقطع تماماً خيوط التبعية مع الغرب، ونواجهه أيضاً بتصفية كل مراكز الثقافة المغتربة وكل أشكال الإختراق الثقافى، ونواجهه بثورة ثقافية شاملة تعتمد على تأكيد قيمنا الحضارية، ونواجهه بالوحدة، ورفض التجزئة التى فرضها علينا، ونواجهه بتعبئة شعبية شاملة، ونواجهه بحرب حضارية شاملة فى مواجهة حرب حضارية شاملة.

ويجب أن ننتبه هنا إلى نقطة خطيرة، وهى أن أخطر هذه المواجهات هى على الجانب الثقافى، لأن الإختراق الثقافى يدمر حيوتنا من الداخل ويقلل قدرتنا على المواجهة ويضرب فينا قيمنا الإيجابية مثل الجهاد والوحدة والرفض وبالتالى يجعلنا عاجزين عن المواجهة فى المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية، ولابد أن ننتبه أنه ما دامت الحرب حضارية وشاملة فليس من المعقول مثلاً أن نستخدم قيماً ووسائل واستراتيجيات مستمدة من الغرب لمحاربته بها ومهما كانت براقة فإنها لن تجدى فى مواجهته، فكيف أواجهه على أرضيته الثقافية والحضارية، لابد أن أواجهه بأساليب وتكتيكات وقيم ووسائل واستراتيجيات مستمدة من ذاتنا حتى تظل قادرة على الإستمرار.

* * *

هناك من يروجون بأنه لا قدرة ولا سبيل إلى مواجهة الغرب وأمريكا وأن توازن القوى مختل تماماً لصالحهم وأنه لا داعى للمواجهة لأنها لن تفيد وأنه من الأفضل الخضوع أو البحث عن سبيل للتفاهم، وإذا كنا ندرك أنه لا سبيل للتفاهم فإن المتاح وفقاً لمنطق هؤلاء هو الخضوع فقط،

وحتى إذا سلمنا بصحة مقدمة هؤلاء وهى أن الغرب وأمريكا أقوياء بدرجة لا يمكن مواجهتها، فإن النتيجة التى توصلوا إليها خطأ، لأن معنى مثل هذه القوة الهائلة للغرب وأمريكا أن الخضوع لهم سيؤدى إلى النهاية والموت والإندثار، وأن الخضوع لن ينقذنا ولن يحقن دمائنا، بل إن الخضوع سيتسبب فى خسائر أكثر كثيراً من المواجهة حتى ولو كانت غير متكافئة، على الأقل فالمواجهة سوف تقلل الخسائر وسوف تسمح للبذور الكامنة تحت التربة بالبقاء بعيداً عن يد الغرب فتعود لتثمر فى فرصة أخرى مستقبلية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحضارة الغربية تحمل فى داخلها الكثير من نقاط الضعف التى ينبغى الصمود واستثمارها أو الصمود وانتظار أن تؤدى تلك المواقع الضعيفة فى جسد الحضارة الغربية إلى انفجار داخلى، فالإنسان فى الحضارة الأوروبية مثلاً يفتقد التوازن بين حاجاته المختلفة ويفتقد إلى التوازن فى علاقاته مع الجماعة، وهذا يؤدى إلى انتشار الأمراض النفسية والجريمة والإنحراف والشذوذ الجنسى وزيادة استهلاك الخمور والمخدرات إلى حدود أصبحت تهدد حياة مئات الملايين من سكان أوروبا وأمريكا وهو ما يمكن أن يؤدى على المدى المتوسط أو الطويل إلى انهيار الحضارة الغربية داخلها، أضف إلى ذلك أن الرغبة فى تحقيق أقصى قدر من النهب وبالتالى عدم التورع عن استعمال أقصى قدر من العنف ومع تزايد قوة الأسلحة الفتاكة يجعل العجلة العسكرية تدور بلا توقف مما يجعلها فى النهاية قابلة للإنفجار من داخلها أو بالتصادم مع بعضها البعض وإذا كانت الحرب العالمية الثانية التى نشأت بسبب التنافس على الربح بين دول كلها تنتمى إلى الحضارة الغربية قد أدت إلى قتل ٦٢ مليون إنسان معظمهم من الأوروبيين فكم يا ترى سوف يقتل فى المعركة

المقبلة إذا ما احتدمت هذه المعركة بنفس السبب السابق بين نفس الدول السابقة؟! مع العلم أن القدرات التدميرية لتلك الدول أصبحت هائلة بالمقارنة إلى مثيلتها أثناء الحرب العالمية الثانية، وبالإضافة إلى ذلك فإن الرغبة فى الربح بدون وازع أخلاقى ولا مراعاة للتوازن البيئى يمكن أن تؤدى إلى كارثة تهدد كوكب الأرض بأكمله.

ويلخص الأستاذ منير شفيق فى كتابه «الإسلام فى معركة الحضارة نقاط الضعف فى الحضارة الغربية كالتالى:

١ ـ التطور العام غير المتوازن بالنسبة إلى مختلف المجالات، فقد تكثف فى المجالات المادية واختل على مستوى العلاقات الإنسانية والأخلاقية مما يؤدى بالنهاية إلى الإسراع بسقوطها لأن حالها يصبح كحال الذى يقف على قدم واحدة ، فمهما بلغت قدمه من القوة إلا أنها ضعيفة حين يتعرض الجسد كله إلى هزة قوية.

٢ ـ اتسعت الهوة بين أصحاب تلك الحضارة والغالبية العظمى من شعوب العالم مما دفع بها إلى مواجهة قوى لا قبل لها عليها، فالأقلية الظالمة مهما قويت وتمكنت تظل ضعيفة أمام قوة الأغلبية المظلومة صاحبة الحق، فالتضاد مع حقوق غالبية الشعوب ومصالحها يؤدى إلى انهيار تلك الحضارة مهما طال الزمن.

٣ ـ التآكل الداخلى يشكل سمة أساسية مميزة لمجتمعات الحضارة الفرنجية سواء أكان ذلك على مستوى المجتمع منفرداً أم على مستوى صراع تلك المجتمعات فيما بينها، إن الصراع على امتلاك القوة والسيطرة والتنازع لامتلاك الثروة يؤديان بالإسراع بعملية التآكل الداخلى.

٤ ـ إن إطلاق الغرائز والنزعات البهيمية وانتشار الفساد والإنحلال قد يصل فى تلك الحضارة إلى ضعف داخلى شديد يجعلها غير قادرة حتى على الإفادة من قوتها المادية، مما قد يكرر صورة الجندى الرومانى الذى ربط بالسلاسل لكى لا يفر فى معركة اليرموك، على الرغم من الكثرة العددية للرومان فى تلك المعركة، وقوة دروعهم، وطول رماحهم ومضاء سيوفهم وفراهة خيولهم.

* * *

وقد يقول قائل إن الحضارة الغربية يمكن أن تعالج نقاط ضعفها أو تتخلص منها وبالتالى تجدد نفسها، وهذا القول يعكس جهل أصحابه بطبيعة وجوهر الحضارة الغربية وطبيعة وجوهر نقاط الضعف فيها، لأن نقاط الضعف هنا هى من صميم وجوهر الحضارة الغربية وليس عارضاً عليها ولا ناشئاً من عوامل جانبية أو إهمال من القراد أو غيرها إنها تنبع من داخلها ومن صميمها بطريقة تلقائية وحتمية بحيث أنه من المستحيل عليها معالجتها أو التخلص منها، وإذا حاول أهل الحضارة الغربية التخلص من تلك العيوب فإنهم سيتخلصون من الحضارة الغربية ذاتها.

فمثلاً إن السعى لتحقيق أقصى درجات القوة العنيفة المادية من أجل السيطرة على العالم ونهب ثرواته بلا حدود يجعل تلك الحضارة تدرس على كل القيم والمعايير التى تتعارض مع هذا السعى، أو بتعبير آخر إن ذلك السعى يسخر كل شىء من أجله، وهذا فى حد ذاته يسمح بالتفوق فى مجالات محددة، وهذه نقطة قوة أساسية فى الحضارة الغربية، وهى أيضاً سبب انهيارها المتوقع فى مجالات أخرى، المجالات الأخلاقية والنفسية والإنسانية واندلاع أشد الصراعات الداخلية والخارجية مما يشكل بدوره نقطة الضعف المركزية فى هذه الحضارة، إن نقطتى القوة والضعف

المتولدتين عن تلك السمة الأساسية فى الحضارة الغربية سيصلان فى نهاية المطاف إلى تدميرها إن لم يعرضا مستقبل الإنسانية كلها إلى خطر قريب من شبه الإبادة الجماعية»*.

ومثل آخر أنه إذا حاول نظام حكم عنصرى التخلص من عنصريته، فإنه فى الحقيقة يتخلص من نفسه، لأن العنصرية هنا هى التى شيدت بنائه وهى التى تسمح له بالإستمرار، فلولا النهب والإسترقاق والفصل العنصرى لما كان هذا النظام العنصرى قد نشأ ولما كان حقق لنفسه هذا الرخاء ولما استطاع أن يستمر لحظة بعد التخلص من العنصرية.

* منير شفيق ـ مرجع سابق .

٧

الحضارة الأوروبية حضارة العنف والنهب والمنفعة اللاأخلاقية

منذ أربعة إلى خمسة قرون لم تكن هناك أوروبا التى نعرفها اليوم، لم تكن هناك دول قومية ولا نهضة علمية ولا حضارة، بل كانت أوروبا عبارة عن مجموعة من الأمراء والاقطاعيات، غارقة فى الصراع والحرب والقتال ثم حدثت عملية نهضة بدأت فى أكثر من بلد وامتدت لتشمل أوروبا ثم أمريكا وهو ما يسمى بعصر النهضة. وهو ذلك العصر الذى تم فيه بعث الثقافة والتراث والقيم الإغريقية القديمة والتراث السياسى اليونانى والرومانى، وشيئاً فشيئاً سادت الثقافة الإغريقية كل شىء فى أوروبا واختلطت بالثقافة السكسونية والجرمانية وشكلت ما يسمى بالحضارة الأوروبية، وهى حضارة تعكس القيم الثقافية والسياسية التى تقوم على الوثنية وإن كانت قد حملت قشرة مسيحية خارجية إلا أن جوهرها وثنى.

ومع الكشوف الجغرافية التى بدأت فى بلاط الملوك وخاصة الأسبان والبرتغاليين ومع اكتشاف الأمريكتين، بدأ عصر الاستعمار ونهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها بلا رحمة ولا هوادة، واستخدمت أوروبا تلك الثروات المنهوبة والأيدى العاملة التى جلبتها كرقيق فى دفع عملية اقتصادية هائلة تمخضت عن ظهور الرأسمالية ثم الثورة الصناعية، وذلك لتستخدم هذه الآلية الجديدة السياسية والعلمية «الرأسمالية والثورة الصناعية» فى المزيد من النهب والاسترقاق، وكانت المحصلة النهائية هى الرخاء والرفاهية المادية لجزء من العالم «عدد من الدول الأوروبية» على حساب ٨٠٪ من سكان العالم «عالم الجنوب عموماً»، وحتى سكان الشمال لم يحظوا جميعاً بالرفاهية بل قطاع صغير منهم على حساب الأغلبية.

إذن فالسمة الثانية بعد الوثنية التى تميز الحضارة الغربية هى سمة النهب، وبالطبع هذا النهب صاحبه القهر والعنف للشعوب المغلوبة على

أمرها وصاحب ذلك بالضرورة محاولات فلسفية وفكرية للحديث عن رسالة الرجل الأبيض وتفوقه وتميزه لتبرير خضوع الشعوب الأخرى لهذا الرجل وتبرير استرقاق العبيد وخاصة السود ومنها نشأت التفرقة العنصرية التى ما زالت موجودة حتى الآن فى كل أوروبا وأمريكا من خلال الممارسات غير الرسمية وفى جنوب افريقيا رسمياً وقانونياً، وصاحب الرأسمالية بالطبع عملية البحث عن الربح بأى ثمن والتطاحن فيما بين الرأسماليين لتحقيق أقصى ربح ممكن، وهكذا أخذت الحضارة الغربية سمتى المنفعة اللاأخلاقية والتطاحن.

وهكذا فإن السمات العامة للحضارة الغربية هى الوثنية، المنفعة اللاأخلاقية، القهر ، العنف، النهب، التطاحن، العنصرية.

والحضارة الغربية، أو الحضارة الأوروبية، تضم بالطبع أوروبا وأمريكا على اعتبار أن أمريكا جزء لا يتجزأ من السياق الحضارى الأوروبى، بل هى أسوأ أجزائها وأبشع تطوراتها وذلك أنها نشأت أساساً على يد حثالة الأوروبيين من المهاجرين والمغامرين والأفاقين، أى أن أمريكا تحمل السمات الأساسية للحضارة الغربية وهى: النهب، الوثنية، العنف، العنصرية، المنفعة اللاأخلاقية، بل وفى أسوأ صورها وممارساتها وانتماء أمريكا للحضارة الغربية أمر لا يختلف عليه اثنان بحكم الأصل والممارسة وريتشارد نيكسون يقول فى هذا الصدد: «وطن مشترك عبر المحيط الأطلنطى» .. ويضيف: «علينا أن نبنى وطناً مشتركاً عبر الأطلنطى من كاليفورنيا حتى كمشاتة».

وإذا ما نظرنا إلى الإفرازات الفلسفية والسياسية والإجتماعية نجد أن الحضارة الأوروبية قد أفرزت الرأسمالية، الشيوعية، الاشتراكية الديمقراطية، النازية، الفاشية، الصهيونية، وهى إفرازات كلها بشعة لأن

الرحم الذى خرجت منه رحم قذر وبلا ضمير، فالرأسمالية مثلاً مسئولة عن جزء كبير من النهب والقهر الذى عانت منه معظم شعوب العالم، والشيوعية مثلاً ارتكبت المذابح فى البلاد التى سيطرت عليها وارتكبت جرائم الغزو بحق الآخرين مثل غزو أفغانستان، المجر، تشيكوسلوفاكيا، الفاشية والنازية تسببتا فى حروب طاحنة راح ضحيتها عشرات الملايين من البشر، أما الإشتراكية الديمقراطية فهى المسئولة عن العدوان الثلاثى على مصر مثلاً سنة ١٩٥٦ حيث كان يحكم البلاد المعتدية أحزاب اشتراكية: حزب العمال البريطانى، الحزب الاشتراكى الفرنسى، وحزب العمل الإسرائيلى، والجزائر مثلاً لم تعان فى فترات احتلالها أكبر وأفظع الممارسات إلا عندما كان الحزب الاشتراكى يحكم فرنسا، وإسرائيل مثلاً تتلقى أكبر الدعم من الحكومات الديمقراطية الاشتراكية فى أوروبا، أما الصهيونية فجريمتها فى فلسطين معروفة.

وهكذا فإن كل ما أفرزته الحضارة الغربية كان وبالاً على البشرية ممايدل على أنها حضارة فاسدة فى أساسها، بل إن إفرازات الحضارة الغربية لم تتورع عن إلحاق الأذى بأبناء الحضارة الغربية أنفسهم الرأسمالية فى الحرب العالمية الأولى مثلاً والفاشية والنازية فى الحرب العالمية الثانية التى مات فيها ٦٢ مليوناً من البشر.

والسجل الأسود للحضارة الغربية يضم أيضاً إبادة ١٠٠ مليون* من الهنود الحمر ومثلهم من الأفارقة الذين ماتوا من جراء القتل أو الحرق أو إرهاق العمل والإسترقاق أو من جراء المعاملة السيئة فى المراكب التى كانت تنقل الرقيق من إفريقيا إلى أوروبا وأمريكا، وفى الجزائر مثلاً قام

---

* فى وقت كان فيه سكان انجلترا مثلاً ٣ ملايين نسمة أى أن الحضارة الغربية مسئولة عن قتل ٣٠ ضعف سكان انجلترا من الأفارقة ومثلهم من الهنود.

الاستعمار الفرنسى بقتل وتهجير مليونين من السكان «كانت الجزائر وقتها ٤ ملايين.. أى أنهم قتلوا نصف السكان فى عملية الإحتلال ثم راحوا يقتلون مئات الألوف كل عدة سنوات مع كل انتفاضة».

ولنستمع إلى شهادة الرئيس الجزائرى الأسبق فى هذا الصدد*، يقول بن بيلا: «إن الصورة ما بين قتل الهنود الحمر وإبادة الزنوج والعرب إلى جرائم هتلر وموسولينى وستالين مروراً على كرومر ونابليون واللنبى وبيجو إلى يومنا هذا، هناك خيط واحد متسلسل بمنطق واحد، حلقة مخلقة، ثم القنابل الذرية والحروب العالمية التى انتهت باستخدام القنبلة الذرية ضد اليابان، والتى بلغ عدد القتلى فى تلك الحروب ٦٢ مليوناً من البشر، ثم أفران الغاز وجرائم ستالين المروعة وصولاً إلى ما فعلوه فى بيروت وفلسطين، إنها الحضارة الغربية، حضارة القتل والذبح والتدمير والحروب والقنابل الذرية والإبادة والجوع وإبادة الغابات وإفساد البيئة.

ويضيف بن بيلا : «تمخضت تلك الحضارة عن إبادة أجناس كاملة مثل الهنود الحمر، وعن استرقاق الزنوج، وعن ظهور طفل خبيث هو الاستعمار الذى هيمن ولم تقف حدود هيمنته إلا عند آخر حدود الأرض وما زالت هذه الهيمنة قائمة ومستمرة إلى يومنا هذا وإن كانت الأساليب قد تبدلت وتغيرت وتمخضت تلك الحضارة المريضة عن حروب داخلية وقمع بشعين، وعن حروب عالمية ١٩١٤، ١٩٣٩ وذهب فى الأخيرة وحدها ستون مليوناً من البشر، وأدت تلك الحضارة إلى ظهور نماذج مثل هتلر وستالين وموسولينى وأدت إلى إعدام الزراعة فى كثير من بلدان العالم، خصوصا النامية وأدت إلى المجاعة التى يموت بسببها خمسون مليوناً من البشر

* محمد خليفة ـ حوار معرفى شامل مع بن بيلا.

سنوياً من ضمنهم خمسة عشر مليون طفل، ومأساة الجوع هذه تتضخم بسرعة هائلة بسبب القضاء على الزراعة، وقد بقيت الولايات المتحدة وحدها القادرة على تصدير الغذاء وهذه لن تبيع الغذاء لك إلا إذا كنت شخصاً مرضياً عنه، وهناك ١٧ مليون هكتار يتم القضاء عليها سنوياً وهى عنصر التوازن البيئى الأول، ٤٠٪ من الغابة الإستوائية انتهى، وفى ألمانيا ذاتها، الغابة السوداء الشهيرة ستنتهى خلال عشر سنوات، كما انتهت بالفعل غابات أخرى فى ألمانيا وسويسرا وغيرها، وهناك زحف الصحراء، وهناك مأساة التلوث البيئى التى تتكشف أخطارها كل يوم، هناك ٤١ دولة مفلسة لا تستطيع حتى أن تدفع فوائد ديونها وهى شعوب تعيش شبه متسولة أشبه ما تكون بوضع البعير فى الماء بالكاد يبقى رأسها فوق الماء لتتنفس ولا تموت بسرعة، وهذا الوضع ليس مرشحاً للنقصان بل العكس، البنك الدولى نفسه يقول أن ٤١ دولة يمكن أن تصبح مائة دولة، إن ثلاثة أرباع البشرية اليوم لا يعيش بينما الربع يحظى بكل شىء ويستهلك كيفما يشاء. والأخطر أن هذه النسبة تزداد تضخما فتصبح ٤/٣، ٥/٤، ٦/٥ وهكذا، وهناك الإغتراب بسبب تقسيم مجحف وغير طبيعى للعمل إلى أجزاء صغيرة، إن فرنسا مثلاً فيها تسعة ملايين كلب، ٨ ملايين قطة تستهلك ٤ مليارات دولار فى حين أن ميزانية الصومال مثلاً ٤٠٠ مليون دولار أى أن كلاب وقطط فرنسا تأكل عشر مرات أكثر مما يأكل الشعب الصومالى كله. إن النظام الذى تمخض عن هذه الحضارة ينظم الأزمات متعمداً ويخلقها ويوزعها على الدول الفقيرة والمتخلفة، وهى حلقات مترابطة من إفلاس الدول إلى المجاعة إلى أزمة البيئة، إلى التصحر، إنها أزمة حضارة كاملة.

***

إن الذين يقدمون لنا أمريكا اليوم كقائدة للنظام العالمى الجديد، ويبشرون بقيمة الحرية على أنها قيمة أمريكية كبرى، هؤلاء ينسون أن تلك الحرية المزعومة قد قامت على ذبح الهنود الحمر، واسترقاق السود، وأنه باسم تلك الحرية ثم دعم اسرائيل على حساب الشعب الفلسطينى، وأن أمريكا هذه التى يروجون لها ويطلبون منا أن نقبل بقيادتها غزت الكثير من الشعوب، وأسقطت طائرات مدنية مثل الطائرة الإيرانية المدنية عام ١٩٨٨ فوق الخليج، وتمارس ازدواجاً مروعاً فى المعايير فيما يخص العرب والمسلمين.

وهؤلاء الذين يتحدثون عن قيم الحرية والإخاء والمساواة التى فجرتها الثورة الفرنسية يتناسون أن أبناء تلك الثورة الفرنسية هم الذين ذبحوا الشعب الجزائرى ونهبوا ثرواته، بل وهؤلاء أنفسهم دعاة الحرية والإخاء والمساواة رفضوا إعطاء الجنسية الفرنسية للجزائريين عندما ضموا الجزائر لفرنسا، أى أنهم رفضوا تطبيق مبدأ المساواة المزعوم.

* * *

وفى الحقيقة فإن الذين يتحدثون عن الحضارة الغربية باعتبارها حضارة تقدمية أو صالحة يقعون فى الخطأ، ذلك أنهم ينظرون إلى المسألة فى شقها الأوروبى أى بالنظر إلى التاريخ الأوروبى وحده، وكأن أوروبا هى كل العالم، أى يذكرون أوروبا وينسون باقى العالم، ولو كانوا منهجيين لدرسوا الحضارة الأوروبية بمنظور ومن خلال ممارساتها فى العالم كله.. إذن لاكتشفوا أنها أبادت شعوباً واسترقت أخرى ونهبت الجميع ومارست التفرقة العنصرية وزعمت سيادة البيض على غيرهم.. ولو وضعوا هذه الأمور فى معاييرهم لكانت الحضارة الغربية حضارة همجية ومتوحشة ورجعية.

وحتى فى شقها الأوروبى أو بالنظر إلى التاريخ الأوروبى، فإن تلك

الحضارة تمخضت عن الفاشية والشيوعية والنازية وفجرت حربين راح ضحيتهما عشرات الملايين من البشر من أهل أوروبا أساساً، إذن فهى حضارة الصراع حتى مع بعضها البعض، وكذلك فإنها أفسدت البيئة وأخلت بالتوازن البيولوجى فى الكون، وتسببت فى الإيدز والمخدرات، وفى أسلحة الدمار الشامل، أى أنها خطر على الآخرين.. خطر على نفسها.. خطر على الأرض كلها ومستقبل الحياة البشرية فيها، فكيف تكون هذه حضارة مرشحة لقيادة العالم !

٨

الإسلام هو النظام العالمى الجديـد

مع التقدم الهائل فى وسائل المواصلات والإتصال، أصبح العالم بمثابة قرية اليكترونية صغيرة، وبالتالى أصبح هناك ضرورة ومبرراً للحديث عن مصير إنسانى واحد، وعن ضرورة وجود معايير دولية واحدة، أو حدوث شكل من أشكال المشاركة الإنسانية الشاملة، ولكن هناك اتجاهاً قوياً يجد من يسنده إعلامياً وعسكرياً وسياسياً واقتصادياً عن ضرورة جعل الحضارة الغربية بقيمها وخصائصها هى النظام العالمى الجديد على أن تكون أمريكا هى فائدة هذا النظام العالمى الجديد.

وإذا كنا نقبل ونرحب وندعو إلى المشاركة الإنسانية الشاملة، لأن العالم أصبح شديد الترابط، وجعلته وسائل الإتصال والمواصلات قرية اليكترونية صغيرة، فإننا لا نجد أن هناك ارتباطاً شرطياً بين ذلك وبين إخضاع هذا العالم للمنظومة القيمية للحضارة الغربية، أو لأى منظومة حضارية واحدة، هذا العالم الصغير المترابط المتصل يمكن أن تتعايش فيه أكثر من حضارة دون أن تمارس إحداها على الأخرى قهراً أو تسلطاً أو تستهدفها للتذويب أو التدمير أو الإلحاق، والحضارة الإسلامية مثلاً فى وقت تفوقها لم تمارس قهراً أو تسلطاً أو إلحاقاً على الحضارات الأخرى، وتركت المسألة للخيار الحر.. **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾** .. ولا إكراه طبعاً فى الحضارة ولا فى القيم الحضارية.

ومع ذلك فإننا أيضاً لا نمانع فى أن يسود العالم نمط حضارى واحد بشرط أن يكون ذلك من خلال الاختيار الحر وليس القهر والعنف والإجبار، ولابد أن تكون هذه الحضارة التى ينبغى لها أن تسود العالم ينبغى لها أن تكون عالمية فى قيمها ومعاييرها، وهذا شرط بديهى فكيف تسود العالم حضارة ليست عالمية!! هذا طبعاً بالإضافة إلى شروط أخرى كالعدل والمساواة والأخلاقية والإحساس بالمسئولية وغيرها.

والذين يدعون مثلاً إلى سيادة الحضارة الغربية على العالم، يدعون فى الحقيقة إلى سيادة حضارة غير عالمية على العالم، وهذا منتهى التناقض والمغالطة وما دام الحديث عن العالمية، فلنبحث عما إذا كانت تلك الحضارة المرشحة وهى الحضارة الغربية ذات قيم عالمية أم لا، أى أن نخضع الحضارة الغربية فى قيمها وخصائصها وممارستها لفحص وتمحيص عالميين.

الحضارة العالمية مثلاً ولأنها عالمية أى تضم الأبيض والأسود والأصفر والأحمر فيجب أن تكون لا عنصرية، أما الحضارة الغربية فهى عنصرية حتى النخاع وسجلها العنصرى حافل، بدءاً من إبادة شعب كالهنود الحمر، ومروراً باسترقاق السود، وانتهاء برفض فرنسا إعطاء الجنسية الفرنسية لشعب الجزائر حينما أدمجت الجزائر بالقوة وجعلتها جزءاً من فرنسا.

الحضارة العالمية يجب مثلاً أن تكون ذات معايير واحدة، تقيس بها الأوروبى والعربى والهندى والصينى بمعيار واحد، أما الحضارة الغربية فهى حضارة مزدوجة المعايير، فلا يعقل مثلاً أن تتجاهل طرد وتشريد الشعب الفلسطينى وقمعه بلا رحمة على يد القوات الإسرائيلية، أن تتجاهل الإرهاب الإسرائيلى ضد الشعب الفلسطينى واللبنانى وتصيح فى وجه الإرهاب الليبى! ليس من المعقول مثلاً أن تتحدث الحضارة الغربية عن حقوق الإنسان، والديمقراطية وحرية الإنتخابات ونزاهتها، ثم لا تقبل بخيار الشعب الجزائرى من خلال صناديق الإنتخاب، وتتآمر على خياره وتأتى وتدعم حكومة توقف المسار الإنتخابى!

الحضارة العالمية يجب مثلاً أن تسعى لإسعاد كل البشر وليس أوروبا وأمريكا وحدهما، والحضارة الغربية ليست عالمية بهذا المعيار، لأنها تعتمد فى رفاهية شعوب أوروبا وأمريكا على نهب ثروات الشعوب الأخرى وإفقارها.

الحضارة العالمية، وبما أنها عالمية فيجب أن تكون أمينة على البيئة ومستقبل الحياة البشرية على كوكب الأرض، أما الحضارة الغربية فهى حضـــارة غير أمينـــة تفسـد البيئـة وتخل بالتوازن البيولوجى فى الكون وتؤدى إلى التلوث ويمكن أن تؤدى بكارثة على مستوى الكرة الأرضية كلها.

الحضارة العالمية يجب أن تكون حضارة ذات مسئولية أخلاقية، والحضارة الغربية التى يموت فى ظلها ٥٠ مليوناً من البشر جوعاً سنوياً منهم ١٥ مليون طفل ليست بالطبع عالمية بهذا المعيـار.

إذن فالمعايير العالمية تجعل الحضارة الغربية ليست حضارة عالمية، وبالتالى فمن الطبيعى والواجب وفى إطار الحديث عن الحضارة العالمية أن نبحث عن حضارة أخرى تتفق مع المعايير العالمية.

وإذا بحثنا فى العالم عن المنظومات الحضارية الموجودة لنأخذ منها واحدة تصلح لصفة العالمية، لوجدنا هناك الحضارات الفرعونية، الآشورية، السومرية، الفارسية.. وهذه كلها إما اندثرت وإما اندمجت طواعية فى الحضارة الإسلامية، ونجد الحضارات الصينية والهندية واليابانية والافريقية الزنجية وهذه حضارات لا تحمل رسالة ثقافية وبالتالى لا تصلح لصفة العالمية، ولا يبقى إلا حضارة الهنود الحمر وهذه تمت إبادتها بجريمة كاملة المعالم على يد الحضارة الغربية، والحضارة الإسلامية وهذه وحدها المرشحة لقيادة العالم، والتى تحمل وحدها صفة الحضارة العالمية.

وهذه الحضارة الإسلامية تمتلك رصيداً هائلاً من التراث القيمى والأيديولوجى وأثبتت حيويتها وإيجابيتها وتعرضت لضغوط هائلة أمام الحضارة الغربية ولكنها صمدت أى أنها أولاً ما زالت موجودة وما زالت حيوية، والجميع يعترف بهذه الحقيقة، أى حقيقة حيوية الحضارة

الإسلامية واستمراريتها وعدم القدرة على تدميرها. يقول أعداؤها عنها ذلك مثل باول شميتز مثلاً: «إن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوروبا وهتاف يجوب أفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوروبى لمواجهة هذا العملاق الذى بدأ يصحو وينفض النوم من عينيه، هل يسمعه أحد؟.. هل من مجيب»؟*.

إذن فهى حية، بل وما زالت خطيرة على أوروبا القويـة !

ويقول باول شميتز أيضاً: «إن القوة الإسلامية قوية وحيوية وموجودة لأنها قائمة على أسس لا تتوافر فى غيرها من تيارات القوى العالمية»**.

ويعترف بذلك المفكر الإنجليزى هيلد بلوك: «لا يساورنى أدنى شك أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكاً قوياً وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه»***.

ويقول لورانس براون: «الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قدرته على الإنتشار وفى حيويته المذهلة»****.

ويقول ريتشارد نيكسون: «ويحذر المراقبون من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة وأنه مع التزايد السكانى والإمكانيات المادية المتاحة سوف يشكل المسلمون قوة هائلة ومخاطر كبيرة»*****.

---

* باول شميتز نقلاً عن عبدالوارث سعيد.. مرجع سابق.

** باول شميتز ـ مرجع سابق.

*** نقلاً عن عبدالوارث سعيد ـ مرجع سابق.

**** نقلاً عن د. عمر فروخ ـ مرجع سابق.

***** ريتشارد نيكسون ـ الفرصة السانحة ـ ترجمة أحمد صدقى مراد.

إذن فاستمرار التواصل الحضارى الإسلامى، واستمرار الإسلام وحيويته المذهلة وقدرته على التجديد والإنتشار أمر لا يختلف عليه اثنان، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين يشكلون مساحة جغرافية هائلة وثقلاً سكانياً كبيراً يمتد من طنجة إلى جاكرتا ومن أنقرة إلى جنوب افريقيا، وكذلك الامكانيات والثروات الهائلة لأمكننا أن نرشح الإسلام ليكون الحضارة العالمية. وفى هذا الصدد فإن هناك العديد من العوامل التى تزكى وترجح هذا المنحى.. فمن ناحية فالعالم الإسلامى يقع فى ثقله الأساسى فى قلب العالم وفى أهم المساحات الجغرافية فيه، كما أنه يوجد أيضاً بنسب متفاوتة فى جميع القارات والدول بعكس الحضارة الغربية التى تتركز فى أوروبا وأجزاء من أمريكا الشمالية واستراليا، ولا يمكننا أن نقول ان هناك تواجداً حضارياص حقيقياً للحضارة الأوروبية فى أمريكا الجنوبية أو افريقيا أو حتى آسيا، لأن الموجود فى تلك البلاد شكل من أشكال الخضوع والإلحاق القسرى دون السماح لهم بدخول البيت الحضارى والقيمى للحضارة الغربية، أما المسلم فهو بالضرورة يحمل السمات الحضارية للإسلام والحضارة الإسلامية سواء كان فى افريقيا أو آسيا أو أوروبا أو أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو استراليا أو حتى فى بلاد الواق واق.

والنقطة الثانية فى هذا الصدد أن القيم الحضارية الإسلامية من خلال المسلمين موجودة فى كل القوميات والأعراق والأجناس، فالعربى والتركى والفارسى والهندى والصينى والياباني، والأوروبى، والأمريكى، بل والقوقازى يوجد بينهم مسلمون، وكذلك السود والبيض والحمر والصفر مما يجعل الحضارة الإسلامية مقبولة مسبقاً من شخصيات من كل القوميات والأعراق والألوان والأجناس، بعكس الحضارة الغربية التى تقتصر على جنس واحد هو الأبيض ومساحة جغرافية محدودة فى أوروبا وأمريكا

الشمالية واستراليا.

والنقطة الثالثة فى هذا الصدد هو أن الحضارة الإسلامية أيام قوتها نجحت فى التعايش مع العديد من الحضارات الأخرى، دون أن تمارس قهراً حضاريا على أحد بل وسمحت لهذه الحضارات أن تعبر عن نفسها وأن تستمر، ولو كانت الحضارة الإسلامية حضارة تقوم على القهر لكانت أدمجت تلك الحضارات معها قسراً أو دمرتها وقد كانت تمتلك القوة لتحقيق ذلك، وبالتالى فإن جميع حضارات الأرض التى ما زالت قائمة يمكن أن تقبل التعايش فى ظل الحضارة الإسلامية دون قلق، ويمكن أن تتفاعل معها بلا حساسية لأنها قريبة من العائلة الحضارية للإسلام أولاً، ولأنها من خلال التعايش مع الإسلام، أيام مجده نسجت علاقات ووشائج يمكن البناء عليها اليوم، بل إننا لا نبالغ فى القول أن الانتماء الحضارى الإسلامى لا يقتصر على المسلمين بل يضم معهم معظم سكان الأرض فى آسيا وافريقيا وحتى مسيحيو الشرق يؤكدون أنهم ينتمون إلى الحضارة الإسلامية وإلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن مع احتفاظهم بعقيدتهم الدينية فها هو الزعيم القبطى مكرم عبيد يقول: «أنا مسلم وطنا مسيحى عقيدة».

* * *

وإذا تركنا كل هذه الجوانب التى تزكى ترشيح الحضارة الإسلامية لتكون حضارة العالم فى الغد، وأخضعنا القيم والممارسات الحضارية الإسلامية للمعايير الضرورية لأى حضارة تريد أن تكون عالمية، وهى المعايير التى أثبتنا بها فى الجزء الأول من هذا الفصل عدم صلاحية الحضارة الغربية للعالمية لوجدنا أنه من ناحية ضرورة أن تكون الحضارة العالمية حضارة لا عنصرية وتسمح بدخول الأبيض والأسود والأحمر

والأصفر فيها، فهذه سمة واضحة في الحضارة الإسلامية، فلقد ضمت تلك الحضارة على قدم المساواة بالفعل ومنذ نشأتها جميع الألوان والأعراق والقوميات دون تمييز، بل وكان من قادتها ومفكريها وفلاسفتها وحكامها وأمرائها الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، العربي والتركي والفارسي والمغربي، والنص القرآني يقول: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ والحديث الشريف يقول: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».. بل أكثر من هذا فإن تجربة الإسلام الأولى قد ضمت بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي كإشارة وإرادة إلهية واضحة الدلالة، وكذلك فتجربة الإسلام المعاصرة ومن خلال الحركة الإسلامية جعلت رجلاً أسود أميناً عاماً لها هو الدكتور «حسن الترابي»، ومنظمة الدول الإسلامية جعلت أفريقيا أميناً لها هو «حامد الغابد».

ومن حيث عدم ازدواج المعايير، فإن الحضارة الإسلامية أبرز من يقدم هذا.. «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها».. والخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأتي بالقبطي المصري الذي ضربه ابن عمر بن العاص ويقول له: إضربه كما ضربك.. إضرب ابن الأكرمين..

والتوجيه الإلهي يقول للمسلمين ضرورة عدم ازدواج المعايير حتى مع الأعداء وحتى مع الذين نكرههم ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾.

ومن حيث ضرورة أن تكون الحضارة العالمية أمينة على البيئة وعلى مستقبل الحياة البشرية على الأرض، فالحضارة الإسلامية أكبر من يبرز هذا المفهوم، لأن عملها في الدنيا مرتبط بالمسئولية أمام الخالق، وبالتالي فلا تبحث عن المنفعة اللاأخلاقية بل تجعل كل عمل موجه لإرضاء الله

تعالى ولإسعاد البشر وبالتالى فلا إفساد للبيئة، ولا إنتاج أشياء ضارة أو مدمرة على حساب سعادة الإنسان بل كل شيء يخضع لتوجيه وأهداف عليا تحرص على التوازن الفردى والجماعى وتحرص على عدم الإفساد وتحرص على أن يكون هدفها سعادة الإنسان وليس مجرد الربح والإنتاج.. بل إن الحضارة الإسلامية فى أيام الدولة العباسية كانت تستطيع أن تحقق الانشطار النووى ولكن المسار العلمى المرتبط بالغايات والأهداف الأخلاقية حال دون ذلك، لأنه غير ضرورى للإنسان فى ذلك الوقت.

والحضارة الإسلامية حضارة مسئولة، فإذا كانت الحضارة الغربية يموت فى ظلها وبسببها ٥٠ مليوناً من البشر سنوياً بسبب المجاعة من ضمنهم ١٥ مليون طفل، فإن الحضارة الإسلامية لا تسمح بالجوع فى أى ظرف ولا تسمح بأن يستأثر مجموعة من الناس بالرفاهية على حساب الآخرين.. «كى لا تكون دولة بين الأغنياء».. ليس منا من بات شبعاناً وجاره جائعاً.. والجار هنا قد يكون فرداً أو أسرة أو مدينة أو دولة أو قارة وهكذا.. «إذا جاع الناس فلا مال لأحد».. «لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء».

وليس الجوعى أو الفقراء أو الأطفال وحدهم الذى تقول الشريعة الإسلامية بمسئولية الدولة الإسلامية عنهم، بل حتى الحيوانات.. فعمر بن الخطاب يقول: «لو أن دابة فى العراق عثرت لخفت أن يحاسبنى الله عليها، ويقول يا عمر لماذا لم تمهد لها الطريق»!

والحضارة الإسلامية لم تقم على النهب والقهر والإكراه، فأولاً لا إكراه فى الدين وثانياً الجهاد الإسلامى والفتح الإسلامى لم يكن بسبب أو رغبة فى النهب والسيطرة بل كان من أجل تحرير البشر وتحقيق حرية الإختيار أمامهم، بمعنى إزالة الأنظمة الطاغوتية التى تقهر الناس على الفقر أو

الجهل أو تخضعهم لأفكار معينة لا يستطيعون رفضها، ثم ترك الناس بعد ذلك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر دون خوف من إفقار أو نهب أو تعسف أو ظلم، ولنستدعى شاهداً من أهلها ليقول لنا هذا، وهو غى دى بوشير* يقول د. محمد عصفور نقلاً عن غى دى بوشير: «يتساءل غى دى بوشير هل يمكن أن نعتبر التوسع الإسلامى ظاهرة أستعمارية؟ وهو ينفى ذلك سواء من حيث الأساس أو من حيث البنيان، فمن حيث الأساس لم تكن تقف وراء التوسع الإسلامى حوافز التوسع الإستعمارى ولا غاياته فهو لم يكن يرمى إلى إخضاع الشعوب ولا استغلال مصادر الثروة الإقتصادية فى البلاد المفتوحة لصالح الفاتحين وحدهم بل كان يرمى إلى دعوة الشعوب إلى الدين الجديد، هذا إلى جانب أن الفتح الإسلامى كان يستلهم هدفاً مزدوجاً، فقد كان يرمى إلى غلبة حق القوة وقوة الحق فى وقت واحد معاً، أما المستعمر الأوروبى فلم يكن يستبقى إلا حق القوة، كان الفاتح الإسلامى يشرك أهل الأمصار المفتوحة فى الفتح بعد اعتناقهم الدين الجديد، فيصبحون بدورهم فاتحين فيحيون حياة جديدة بمعنى الكلمة فيصبحون أكفاء للفاتح يقفون معه على قدم المساواة، وهو أمر لم يفعله المستعمر المسيحى قط، ذلك أنه عندما كان يدخل أهل المستعمرات فى ديانته، فقد كان يمنحهم مساواة شكلية تقع على الصعيد الروحى فى أحسن الأحوال، أما على المستوى الدنيوى فقد كانت أوروبا، عن طريق المستعمر، هى التى تحتفظ بكل الحقوق وهى التى تمارس الحكم.

أما من حيث البنيان فلم تكن الامبراطورية الإسلامية وهى ثمرة الفتح تتميز بالقسمات الخاصة التى يتسم بها الاستعمار، فلقد كان مجرد اعتناق

* نقلاً عن الدكتور «محمد عصفور» ـ جريدة الوفـد.

الإسلام كافياً لأن يتيح لأى شعب كان أن يشارك فى الفتح وفى تصريف شئون البلاد، وما يسترعى النظر فى ظاهرة التوسع الإسلامى أنه لم تتحقق السيطرة، فى أى لحظة من اللحظات لقوم ما أو لجنس ما، بل كانت سيطرة الدين هى التى تتجاوز إطار الأقوام والأجناس، ولذلك لم تكن ثمة عاصمة واحدة يعود التوسع بالمنفعة عليها وحدها، ولم يكن الفاتحون من عرب الجزيرة وحدهم بل كانوا فى أغلب الأحيان من أهل الشام أو مصريين أو أندلسيين، فلم يجر فتح أسبانيا على يد العرب بل على يد الأندلسيين بعد أن أسلموا فتغلغل الإسلام فى حياتهم إلى أعماق بعيدة بعد أن كان لاختلاطهم بالشاميين والمغاربة أثر كبير من خصائصهم القوية، وطارت ثقافتهم الرفيعة فيما وراء الحدود الإسلامية وساهمت إلى حد كبير فى تطور الفكر الأوروبى والمعرفة الأوروبية فى خلال قرون ما قبل عصر النهضة».

ويروى الأمير شكيب أرسلان فى مقال بعنوان (التعصب الأوروبى أم التعصب الإسلامى) أن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة فى أحد المجالس فى جدال مع بعض رجال دولة أوروبا فيما يتعلق بهذا الموضوع، فقال لهم الوزير العثمانى: «إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وغيرهم، مهما بلغ بنا التعصب فى الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا، ولو كنا قادرين على استئصالهم، ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نبقى بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين، وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام، فما هجس فى ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً، وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا، كما وقع للسلطان سليم الأول العثمانى، تقوم فى وجهه الملة ويواجهه مثل زنبيلى على أفندى شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة، ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزعجهم

عن أوطانهم، فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً للشرع الحنيف، فبقى بين أظهرنا حتى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصائبة وسامرة ومجوس، وكلهم كانوا وافرين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد، واشترطتم عليه إذا أراد البقاء بينكم أن يتنصر، ولقد كان فى أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين، وكان فى جنوب فرنسا وفى شمالى إيطاليا وفى جنوبها مئات الألوف منهم، ولبثوا فى هاتيك الأوطان أعصراً مديدة، ومازلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق فى جميع هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت بلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم»*.

ويقول دكتور اسماعيل الفاروقى: «لقد بلغ المجتمع الإسلامى حدوداً تفوق التصور فى توفير حرية الاعتقاد للآخرين، ولقد مد المسلمون تلك الميزة ـ حرية الاعتقاد ـ التى منحها الله لليهود والمسيحيين والصابئين فى القرآن حتى شملت الزرادشتيين، والهندوسيين، والبوذيين والموالين للديانات الأخرى عندما اتصلوا بها»**.

ولم يقتصر الأمر على مجرد حماية الأقليات وتحقيق حرية الاعتقاد للآخرين، بل تعدى إلى قيام المسلمين بحفظ التراث الحضارى للديانات الأخرى، فهذا أبوالريحان البيرونى، وهو من أعظم علماء المسلمين، قد لخص مذهب المانوية في مواضع كثيرة من كتبه، وقال إن كتب «مانى» تضمنت كيداً للأديان والإسلام من بينها، ثم أضاف انه وجد يوماً مجموعة من الكتب فيها كتاب اشتمل على كتب المانوية وعدة رسائل «لمانى» وفى

* شكيب أرسلان ـ حاضر العالم الإسلامى.
** د. اسماعيل الفاروقى ـ الإسلام بين الديانات الإسلامية العظيمة.

جملتها سفر الأسفار، فغشيني له من الفرح ما يغشى الظمآن من رؤية الشراب»*.

«إن هذا العالم الجليل المتمسك بالإسلام وهو أحد علمائه ويعرف أحكامه العظيمة يعز عليه كتاب يتضمن كيداً للأديان وللإسلام فلا يطالب بحرقه أو مصادرته ولا يمتنع عنه، ولكنه يفرح ويغشاه من الفرح ما يغشى الظمآن من رؤية الشراب»**.

الذين لا يفهمون الإسلام، أو يكرهونه ابتداء، يحاولون أن يقرنوا الجهاد فى الإسلام بالعنف الأوروبى، ويقولون ان هذا مثل ذاك، وإذا كان العنف الأوروبى هو غاية فى حد ذاته ووسيلة للسيطرة والقهر والنهب، فالجهاد فى الإسلام وسيلة فقط، ووسيلة لعكس الأسباب التى يقوم بها العنف الأوروبى، أنه وسيلة لمنع وإلغاء والقضاء على القهر والنهب والسيطرة .. إنه فى الحقيقة ثورة من أجل التحرير، تحرير الإنسان فى كل مكان من العبودية للبشر إلى العبودية لله وحده.

وإذا كان مفكرون منصفون من الغرب مثل عن دوبشير كما ذكرنا من قبل قد أثبت اختلاف الفتح الإسلامى عن التوسع الأوروبى فى الغايات والأهداف والممارسات، فإن الأمر فى حقيقته وإذا ما تم فهم الجهاد الإسلامى والفتح والغزو فى الإسلام فى إطار موضوعى يكون تأكيداً جديداً على عالمية الإسلام بل وإحساسه بالمسئولية الأخلاقية تجاه البشر جميعاً، إن الجهاد فى الإسلام ليس موجهاً ضد الناس ولكنه موجهاً ضد الأكاسرة والقياصرة، إنه ليس موجهاً ضد المستضعفين بل موجهاً ضد من يستضعفونهم.. ﴿ **وما لنا لا نقاتل فى سبيل الله**

---

* محمود الشرقاوى ـ تقويم الفكر الدينى.

** فهمى هويدى ـ موقع غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ـ دار الشروق.

والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾. إن الفتح الإسلامى والجهاد الإسلامى عندما فتح فارس مثلاً فإنه فى الحقيقة قد حرر الفرس من طغيان الأكاسرة وأعطاهم حق الاختيار كاملاً، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وعندما فتح الإسلام الأندلس، التى كان يسود فيها قبل الفتح الإسلامى نظام إقطاعى يعطى الحق للسيد الإقطاعى فى التحكم فى رقيق الأرض بيعاً وشراء وقتلاً وتجويعاً كما يريد فإن هذا الفتح قد حرر هؤلاء العبيد وأعطاهم الأرض التى يزرعونها ليحصلوا على خيراتها وهو بذلك قد منع نهب السيد الإقطاعى لعرقهم وحررهم فى نفس الوقت.

يقول الله تعالى:﴿ **قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾**.. أى جاهد حتى لا تستمر فتنة إكراه الطغاة للناس على فكر معين وأسلوب معين، وحتى لا تستمر فتنة القهر والاستبداد والظلم والنهب، وحتى لا تستمر فتنة تأليه الحكام لأنفسهم وإرغام الناس على ذلك، أى جاهدوا لتخرجوا الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس الذى يستوى أمامه الأمير والصعلوك، المالك والأجير، قاتلوا فإذا انتهوا أى كفوا عن القهر والنهب وتأليه أنفسهم على حساب الناس فلا عدوان إلا على الظالمين، أى لا عدوان إلا على من يعود إلى الظلم أو يحاوله مرة أخرى.

إن مفهوم الجهاد فى الإسلام مرتبط بمفهوم الدعوة، وهو وسيلة لتحقيق حرية الدعوة، أى تحقيق كل الحرية والإنصاف والعدل للناس وتركهم بعد ذلك يختارون ما شاءوا من عقيدة، وصحيح أنهم يختارون الإسلام، ولكن ذلك ليس بسبب شىء آخر سوى أنه دين الفطرة.

إن الله تعالى خلق الناس على فطرة الإسلام، بل عرفهم به قبل أن

يبعثهم فى الأرض، وهو ما يسمى فى الفقه ميثاق الذرارى: ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾.. ثم ان الله تعالى قد خلق للناس عقولاً يستطيعون بها الاهتداء بسهولة وبيسر إلى وجود الله ووحدانيته ودينه الحق «الإسلام» كما أنه تعالى خلق فى الكون من الآيات والعبر ما يؤكد وجود الله تعالى ووحدانيته وصحة دينه «الإسلام»، ثم من وقت لآخر يذكر الناس بهذا الدين والمنهج ويمدهم بالأسلوب الصحيح لإعمار الحياة والفوز فى الآخرة عن طريق الرسل والأنبياء. وما دامت الفطرة والقلب والعقل كلها تقود إلى الله ووحدانيته ودينه الحق «الإسلام».. إذن فمن الطبيعى أن يهتدى الناس إلى الإسلام بسهولة ويسر، ولكن القوى الشيطانية جاءت لتحول بين الناس وفطرتهم وعقولهم وقلوبهم، جاءت لتطمس الفطرة بأساليبها الملتوية، جاءت لتمنع حرية التفكير عن طريق الاستبداد السياسى والقهر والإعلام الموجه، جاءت لتقوم بنهب الناس وتحويلهم إلى محرومين حتى يؤدى هذا الحرمان إلى الضغط على الناس بعيدا عن فطرتهم وبعيداً عن تشغيل عقولهم واستخدامها.

والمطلوب من المسلمين، والهدف بالتالى من الجهاد، هو إزالة هذه القوى التى تحول بين الناس وحرية التفكير، أو تحرم الناس اقتصاديا أو تضللهم إعلاميا واجتماعياً، المطلوب هو إزالة هذا الطغيان السياسى والإقتصادى والإجتماعى، لتصبح هناك حرية ويصبح هناك اختيار بلا ضغوط سياسية ولا اجتماعية ولا اقتصادية، ويصبح هناك إشباع لحاجات الناس فلا يظلون أسرى هذه الحاجات.

المطلوب ببساطة من المسلمين ، والهدف بالتالى من الجهاد، هو إزالة

الإكراه بأى صورة من الصور سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو إعلامية **﴿ لا إكـــراه فى الديـــن ﴾** المطلوب هو تحقيق حرية الاختيار، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وهكذا فـإن الجهاد والفتـح فى الإسلام ليس قهراً بل تحـريـراً ..

۞۞۞

الفهـــــــرس